«إحدى أروع القصص التي كُتبت
مؤخرًا بالإنجليزية»
«الأوبزرفر»

كلير كيجن

احتضان

نوفيلا

احتضان

كلير كيجن

احتضان

نوفيلا

ترجمها عن الإنجليزية

أنور الشامي

الكرمة

alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks الطبعة الأولى: ٢٠٢٢

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٢

العنوان الأصلي: Foster

Copyright © ٢٠١٠ by Claire Keegan الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

حقوق الترجمة © أنور الشامي

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.

نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

احتضان: نوفيلا / كلير كيجن؛ ترجمها من الإنجليزية أنور الشامي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٢.

١٢٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٧٤٣٨٢٣

١- القصص الأيرلندية.

أ- الشامي، أنور (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٥٣٠ / ٢٠٢١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

صورة الغلاف: «سعادة الأطفال الفقراء»، مدينة كونستانتا، رومانيا، ٢٠١٧

Elenaphotos / Alamy Stock Photo

المحتويات

إلى إيتا ماركوس وإحياء لذكرى ديفيد ماركوس
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
شكر وتقدير
المؤلفة
المترجم
ترجمات الكرمة

إلى إيتا ماركوس

وإحياء لذكرى ديفيد ماركوس

١

في الصباح الباكر ذات يوم أحد، بعد انتهاء أول قداس في كلونيجال، وبدلًا من العودة إلى المنزل، ينطلق بي والدي بسيارته إلى قلب ويكسفورد باتجاه الساحل حيث يعيش أهل والدتي. الطقس حار اليوم والشمس ساطعة، والطريق تتخلله بقع ظليلة وأخرى مضيئة يظهر ضوؤها المُخضر فجأة. نمر عبر قرية شيليلاج حيث خسر والدي عِجلتنا الحمراء في القمار، ونواصل السير حتى نمر بسوق كارنيو حيث باعها، بعد وقت قصير، الرجل الذي ظفر بها. يُلقي والدي بقبعته على المقعد المجاور له، ثم يُنزل زجاج النافذة ويشعل سيجارة. أفك ضفائري وأتمدد على المقعد الخلفي، ناظرة إلى أعلى عبر النافذة الخلفية. تبدو السماء في بعض الأماكن زرقاء اللون صافية، وفي أماكن أخرى تتلبد بالغيوم، ولكنها في الأغلب مزيج مثير من سماء وشجر تخدِشه أسلاك الكهرباء التي تتسابق عبرها، من حين إلى آخر، حتى تتلاشى، أسراب طيور صغيرة يميل لونها إلى البني.

تُرى كيف سيكون هذا البيت، بيت عائلة كينسيلا؟ أتخيل امرأة طويلة القوام تقف بجواري، وتسقيني حليبًا دافئًا جيء به لتوه من ضرع البقرة. وأتخيل نسخة أخرى منها، وجودها أقل احتمالًا، ترتدي مريلة، وتصب عجين فطيرة في مقلاة، ثم تسألني إن كنت أرغب في فطيرة أخرى، على النحو الذي تفعله أمي أحيانًا حينما يروق مزاجها. أما الرجل فأتصور أنه سيكون في مثل قامتها، وأنه سوف يصحبني إلى البلدة على الجرار الزراعي ويشتري لي عصير ليمون أحمر ورقائق مقرمشة. أو لعلَّه سيجعلني أنظف السقيفة وأنتقي الحجارة وأنتزع العشب الضار ثم أخرجه من الحقل. وأراه يُخرج من جيبه ما آمل أن تكون قطعة نقدية من فئة الخمسين بنسًا قبل أن أتبين أنها منديل. تُرى هل يعيشان في بيت قديم بمزرعة أو في بيت جديد منفصل؟ وهل لديهما مرحاض خارجي أو حمَّام بالمنزل وبه مياه جارية؟ أتخيل نفسي أرقد ممددة في غرفة نوم معتمة مع بنات أخريات، نقول أشياء لن نكررها حينما يطلع الصبح.

يبدو لي أن وقتًا طويلًا قد مضى قبل أن تبطئ السيارة وتنعطف إلى مدق ضيق مرصوف بالقار، ثم أشعر برعشة حينما تجتاز عجلات السيارة شبكة من القضبان المعدنية التي وضعت لمنع الماشية من المرور. في كلا الجانبين، يوجد سياج من الشجيرات الكثيفة المشذبة بشكل مربع. وفي نهاية المدق، هناك منزل طولي الشكل وأبيض اللون، يحيط به شجر تتدلى غصونه حتى تلامس الأرض.

أقول:

ـ بابا، الشجر.

ـ ماذا عنه؟

أقول:

ـ إنه مريض.

يقول:

ـ إنه الصفصاف الباكي.

ثم يتنحنح.

في باحة المنزل، تعكس ألواح زجاجية طويلة ولامعة، صورة وصولنا. أراني أنظر من المقعد الخلفي، بملامح مضطربة، وأبدو بشعري السائب وكأنني ابنة سمكري، فيما يبدو والدي، وهو خلف مقود السيارة، تمامًا كما هو والدي. يظهر لنا كلب ضخم سائب، ترتسم على فرائه ظلال الشجر، وينبح بضع نبحات خشنة وفاترة، ثم يجثو على عتبة المنزل وينظر وراءه حيث الباب الذي خرج منه الرجل ووقف. للرجل جسم مربع، يشبه هؤلاء الذين ترسمهم شقيقاتي أحيانًا، ولكنَّ حاجبيه أبيضان كما شعر رأسه. لا يشبه بأي حال أهل والدتي، الذين هم جميعًا طوال القامة وأصحاب أذرع طويلة، وأتساءل عما إن كنا قد أخطأنا عنوان المنزل.

يقول بتعابير وجه مشدودة:

ـ دان، كيف حالك؟

يقول بابا:

ـ جون.

يقفان في مكانيهما وهما ينظران لبرهة نحو الفناء، ثم يتحدثان عن المطر وكم هو شحيح، وكم تحتاج إليه الحقول، وكيف أن الكاهن في كيلموكريدج صلَّى هذا الصباح تحديدًا طلبًا للمطر، وكيف أنه صيف لم يُعرف له مثيل قَطّ. يصمتان لبرهة يبصق خلالها والدي، قبل أن يتحول حديثهما إلى أسعار الماشية والسوق الأوروبية المشتركة وجبال الزبدة وسعر الجير الحي والمواد المطهرة للأغنام. إنه شيء اعتدته، وهو طريقة الرجال حينما يريدون تجنب

الكلام: يحبون أن يقتلعوا كتل العُشب بكعوب الأحذية أو يخبطوا بأيديهم على سقف سيارة قبل أن تنطلق، أو يبصقوا أو يجلسوا وسيقانهم منفرجة وكأنهم لا يبالون.

حينما تخرج المرأة، لا تلقي بالًا للرجلين. تبدو أطول قامة حتى من والدتي، ولديها الشعر الأسود نفسه، وإن كان شعرُها مقصوصًا قصيرًا ويشبه خَوذة. وترتدي قميصًا مرقطًا، وبنطالًا فضفاضًا بني اللون. تفتح باب السيارة وتخرجني ثم تقبلني. يَسخن وجهي عند تقبيله وملامسة وجهها.

تقول:

ـ آخر مرة رأيتك، كنت في عربة أطفال.

ثم تعتدل في وقفتها، وتنتظر جوابًا.

ـ العربة انكسرت.

ـ وكيف حدث ذلك؟

ـ أخي استخدمها في نقل الأغراض، فانخلعت العَجَلة.

تضحك ثم تلعق إبهامها وتمسح به شيئًا ما عن وجهي. أجد إبهامها أنعم من إبهام والدتي، وهي تمسح ما تمسحه عن وجهي. حينما تنظر إلى ثيابي، أرى في عينيها ثوبي القطني الرقيق وصندلي المُغبر. تمر لحظة لا تدري أي منا ماذا تقول. يهب عبر الفناء نسيم عليل وغريب.

ـ تفضلي يا صغيرتي.

تصحبني إلى داخل المنزل. تُعتم الردهة للحظة، وحينما أبطئ، تبطئ معي. ندخل إلى سخونة المطبخ، حيث تطلب مني أن أجلس وأكون على راحتي. إلى جانب رائحة الخبز، أشم رائحة مادة مُطهِّرة ومنظفات. تُخرج من الفرن فطيرة بالراوند وتضعها على المائدة كي تبرد، حيث توشك فقاقيع قطر العسل أن تفور وتحمصت فوق القشرة معجنات رقيقة على شكل ورق الشجر. يهب تيار بارد عبر الباب، ولكن الجو هنا حار وراكد ونظيف. الأقاحي الطويلة، واسعة العينين، ساكنة سكون كوب الماء الطويل الذي تقف فيه. لا أثر لطفل في أي مكان.

ـ وكيف حال والدتك؟

ـ فازت بعشرة جنيهات في جائزة يانصيب.

ـ حقًّا؟

ـ حقًّا. وتناولنا جميعًا جيلي وآيس كريم، واشترت إطارًا داخليًّا جديدًا للدراجة، وعدة تصليح.

ـ جميل، احتفلتم بالجائزة إذن.

أقول:

ـ احتفلنا.

ثم أشعر، مرة أخرى، بأسنان المشط الحديدي على فروة رأسي في ذلك الصباح، وبقوة يدَي والدتي وهي تضفر خصلات شعري بإحكام، وببطنها في ظهري، وقد تحجر بسبب الطفل الآتي. أتذكر السروال النظيف الذي وضعَته في الحقيبة والخطاب وما قد كتبته فيه. والكلام الذي دار بينهما: ـ إلى متى يجب أن يُبقياها عندهما؟

ـ ألا يمكنهما أن يبقياها كما يرغبان؟

ـ هل هذا هو ما سأقوله؟

ـ قولي ما تشائين. أليس ذلك ما تفعلينه دائمًا؟

والآن، تملأ المرأة وعاء مطليًّا بالمينا حليبًا.

ـ لا بد أن والدتك مشغولة.

ـ إنها في انتظار قدومهم كي يحصدوا الدريس.

تقول:

ـ ألم تحصدوا الدريس بعد؟ ألم تتأخروا هكذا؟

حينما يدخل الرجلان قادمين من الفناء، يُعتم المكان للحظات، ثم يعود فيسطع نوره مرة أخرى حينما يجلسان.

يقول بابا، وهو يسحب كرسيًّا: ـ حسنًا يا سيدتي.

تقول بنبرة صوت مغايرة:

ـ دان.

ـ الجو اليوم شديد الحرارة.

ـ نعم حار، بالتأكيد.

تدير لنا ظهرها كي تلقي نظرة على الغلاية، وتنتظر.

يقول:

ـ ألن تهنأ الحقول ببعض المطر؟

ـ ألن تمطرنا السماء مدة تكفي؟

تنظر إلى الحائط كما لو أن هناك صورة معلقة عليه، ولكن لا توجد صورة على ذلك الحائط، بل مجرد ساعة كبيرة من خشب الماهوجني بعقربين وبندول نحاسي كبير يتأرجح.

يقول بابا:

ـ ومع ذلك ألم تكن سنة رائعة للدريس؟ لم أرَ مثيلها في حياتي. العلية ممتلئة عن آخرها. وكدت أشق رأسي وأنا أحمله على الألواح وأدفعه إلى الداخل.

لا أدري لماذا يكذب والدي بخصوص الدريس. إنه يدمن الكذب عن أمور قد تكون جميلة لو كانت صحيحة. وفي مكان ما، بعيد للغاية، هناك شخص ما شغَّل منشارًا جنزيريًّا يظل يُصدر أزيزًا مدة وكأنه دبور كبير يلسع. أتمنى لو كنت بالخارج، أعمل. لا أعتاد الجلوس ساكنة ولا أدري ماذا أعمل بيديَّ. جزء مني يود لو يتركني والدي هنا، فيما يود جزء آخر لو يعيدني إلى ما أعرفه. أنا في مكان لا أستطيع أن أكون فيه ما أنا عليه دائمًا ولا أن أصبح ما يمكنني أن أكونه.

ينبعث بخار من الغلاية التي تبقبق حتى درجة الغليان ويهتز غطاؤها الصلب. يتحرك طيف قطة مرقطة بالأبيض والأسود على حافة النافذة. وعلى الأرض، يمتد ظل المرأة على البلاطات الصلبة النظيفة حتى يكاد يلامس مقعدي. ينهض كينسيلا ويُخرج مجموعة أطباق من الخزانة، ثم يفتح دُرجًا ويُخرج بعض السكاكين والشوك والملاعق الصغيرة. يزيل الغطاء عن برطمان من الشمندر ويضعه على طبق وبجانبه شوكة تقديم صغيرة، ويترك كريمة الساندويتشات والسلطة. يرقبه والدي عن كثب وهو يفعل ذلك. يوجد بالفعل وعاء به طماطم وبصل، قُطِّعَت إلى شرائح صغيرة، ورغيف خبز طازج، ومكعب من جبن «الشيدر» الأحمر.

تقول المرأة:

ـ وكيف حال ماري؟

ـ ماري؟ موعد ولادتها يقترب.

يسند بابا ظهره إلى الوراء، وعلى وجهه ملامح رضا.

ـ أظن أن الطفل الأخير قد كبر؟

يقول بابا:

ـ نعم. لكن إطعامهم هو المشكلة. لا شهية تضاهي شهية الأطفال، وصدقيني، هذه الطفلة ليست مختلفة.

ـ آه، ألسنا جميعًا نأكل بنهم من حين إلى آخر، تمامًا كما ننمو على طفرات؟

تقولها المرأة، كما لو أن ذلك شيء ينبغي له أن يعرفه.

ـ سوف تأكل، ولكن يمكنك أن تُشغِّليها.

ينظر كينسيلا إلى أعلى، ويقول: ـ لن توجد حاجة إلى أي من ذلك. ولن يكون على الطفلة إلا مساعدة إدنا على أعمال المنزل.

ترد المرأة:

ـ سوف يسعدنا بقاء الطفلة معنا. ومرحبًا بها هنا.

يقول بابا:

ـ سوف تلتهم طعامكما كله، ولكن لا أظن ستكون هناك شكوى من ذلك بعد سنة من الآن.

حينما نجلس إلى المائدة، يمد بابا يده كي يتناول بعض الشمندر. لا يستخدم شوكة التقديم بل يُخرجه إلى طبقه مستخدمًا شوكته. يُسقط بعضًا من بقع الشمندر على لحم الخنزير الزهري، فيبدو وكأنه ينزف دمًا. يُصَب الشاي. يسود صمت متقطع ونحن نتناول الطعام، فيما تُقطِّع السكاكين والشوك الخاصة بنا ما وُضِع على أطباقنا. وعندئذ، وبعد مرور بعض الوقت، تُقطَّع الفطيرة. تتساقط القشدة بكثافة فوق الفطيرة الساخنة.

الآن وقد أوصلني والدي وأكل ملء بطنه، ها هو يتوق إلى إشعال سيجارته ثم الفرار. هذا هو شأنه دائمًا: لا يمكث طويلًا في أي مكان بعد تناوله الطعام، ولا يشبه والدتي التي ستواصل الكلام حتى قدوم الليل وطلوع النهار مرة أخرى. أو على الأقل، هذا ما يقوله والدي، مع أنني لم أرَه يحدث قَطّ. فوالدتي في عمل دائم: فهي ترعانا، وتصنع الزبد، وتعد الطعام، وتغسل الأطباق، وتوقظنا من النوم، وتجهزنا للذهاب إلى القُدَّاس والمدرسة، وتفطم العجول، وتستأجر الرجال لحرث الأرض وتجهيزها، وترشِّد النفقات، وتضبط ساعة المنبه. ولكن هذا المنزل من نوع مختلف. هنا يوجد مكان ووقت للتفكير. وربما يوجد حتى مال للتوفير.

يقول بابا:

ـ يُستحسن أن أغادر الآن.

يقول كينسيلا:

ـ وفيمَ الاستعجال؟

ـ ساعات النهار تمضي، ويجب عليَّ رش البطاطا.

تقول المرأة:

ـ لا خوف من الآفات الزراعية في هذه الليالي.

ولكنها تنهض على أي حال وتمسك بالسكين الحاد وتخرج من الباب الخلفي. أريد أن أصحبها، كي أزيل الطين عما تقطعه وأحمله عائدة إلى المنزل. ينشأ بين الرجلين صمت يطول خلال وجودها بالخارج.

تقول في أثناء دخولها:

ـ قدِّم هذا إلى ماري. أنا غارقة دائمًا في الراوند، مهما كان محصول السنة.

يحمل والدي الراوند عنها، ولكنه يجد صعوبة في حمله وكأنه رضيع بين ذراعيه. يسقط عود منه أرضًا، ويتلوه آخر. ينتظر منها أن تلتقطه، وتُناوله إياه، فيما تنتظره هي أن يفعل ذلك. لن يتزحزح أي منهما عن موقفه. وفي النهاية، ينحني كينسيلا كي يلتقطه.

يقول:

ـ ها هو.

في الفناء، يلقي والدي الراوند على المقعد الخلفي، ويجلس خلف المقود ثم يُشغِّل السيارة.

يقول:

ـ حظًّا سعيدًا. أتمنى ألا تسبب لكما هذه البنت أي متاعب.

ثم يلتفت نحوي قائلًا:

ـ احذري أن تحرقي نفسك بالنار، أنتِ.

أراقبه وهو يرجع بالسيارة، ثم ينعطف نحو المدق، ويبتعد. أسمع وقع عجلات السيارة وهي تندفع فوق شبكة منع مرور الماشية، ثم تتغير السرعة ويتلاشى صوت المحرك في الطريق الذي جئنا منه. لماذا غادر دون كلمة وداع أو سلام، ودون حتى أن يذكر أنه سوف يعود كي يأخذني؟ يبدو النسيم الغريب والمنعش الذي يهب على الفناء أكثر برودة الآن، وظهرت فوق الحظيرة بعض الغيوم البيضاء الكبيرة.

تقول المرأة:

ـ ماذا يزعجك يا صغيرتي؟

أنظر إلى قدميَّ المتسختين في صندلي.

يقف كينسيلا بالقرب:

ـ أيًّا كان الأمر، يجب أن تخبرينا. لن نمانع.

تقول المرأة:

ـ يا إلهي العلي القدير، لقد غادر ونسي أن يترك أي متعلقات لك. لا عجب إذن أن تكوني مضطربة. إن له ذاكرة مثل الغربال، إنه كما هو لم يتغير.

يقول كينسيلا:

ـ ما يهم هو أننا سوف نُلْبسك فورًا أجمل الثياب.

تقول المرأة:

ـ لن تكون هناك شكوى من ذلك بعد سنة من الآن.

يضحكان بصوت عالٍ لبرهة ثم يتوقفان. حينما أتبع المرأة إلى الداخل، أود منها أن تقول لي شيئًا، كي تبدد قلقي. بدلًا من ذلك، تنظف المائدة، وتمسك بالسكين الحاد وتقف أسفل النافذة في الضوء، وتغسل النصل في ماء الصنبور الجاري. تُحدق نحوي وهي تمسح السكين، ثم تضعه جانبًا.

تقول:

ـ والآن يا صغيرتي، أظنك لم تستحمي منذ مدة.

٢

بعد المطبخ، يؤدي درج مفروش بالسجاد إلى حجرة مفتوحة. أرى بها سريرًا كبيرًا يتسع لاثنين وعليه ملاءة قطنية مطرزة، وفي كلا جانبيه ثُبتت مصابيح. هنا ينامان، أتبين ذلك، ولأمر ما، يسرني أنهما ينامان معًا. تصطحبني المرأة إلى حمَّام، وتغلق سدَّادة ثم تفتح صنبور المياه عن آخره. يمتلئ الحوض وتتغير الغرفة البيضاء حتى يصيبنا عمى من نوع ما، فيمكننا أن نرى كل شيء ومع ذلك لا يمكننا أن نتبين شيئًا.

تقول:

ـ ارفعي يديك.

ثم تخلع عني ثوبي. وتتحسس الماء بيدها ثم أضع قدمي، ثقة بها، ولكن الماء ساخن جدًّا.

تقول:

ـ انزلي.

ـ إنه ساخن جدًّا.

ـ ستعتادينه.

أضع قدمًا واحدة في بخار الماء، ومرة أخرى، أشعر باللسعة الحادة نفسها. أُبقي قدمي في الماء، وحينما أقرر أني لن أستطيع احتمالها أكثر من ذلك، يتغير رأيي، وأجدني أستطيع. هذا الماء أعمق من أي ماء آخر تحممت به. والدتنا تُحممنا بأقل قدر، وتجعلنا نتشاركه. بعد مدة، أتكئ إلى الوراء وأرى المرأة عبر البخار وهي تحك قدمي. تُخرج الوسخ من تحت أظافري بملقط. تضغط أنبوبًا من البلاستيك فتُخرج شامبو، وتُرغِّي شعري ثم تغسل الرغوة. بعدها تجعلني أقف وتُصبِّن جسمي كله بقماشة. يداها تشبهان يدَي والدتي ولكنَّ بهما أيضًا شيئًا آخر، شيئًا لم أحسه من قبل، ولا أعرف له اسمًا. أجدني عاجزة عن الكلام ولكني في مكان جديد هنا، وبحاجة إلى كلمات جديدة.

تقول:

ـ الآن ثيابك.

ـ ليست لديَّ أي ثياب.

ـ بالطبع ليست لديك.

تتوقف قليلًا، ثم تُكمل:

ـ هل تقبلين ببعض أشيائنا القديمة مؤقتًا؟

ـ لا مانع.

ـ فتاة مطيعة.

تصطحبني إلى حجرة نوم أخرى بعد حجرتها، على الجانب الآخر من الدرج، وتفتش في خزانة أدراج.

ـ لعل هذه تناسبك.

تُمسك بسروال قديم وقميص مربعات جديد. الكُمَّان والساقان طويلة للغاية ولكنها تشمرها، وتُضيِّق الخصر بحزام من قماش، حتى يناسباني.

تقول:

ـ الآن تليق بك.

ـ ماما تقول إن عليَّ أن أبدل سروالي كل يوم.

ـ وماذا تقول ماما غير ذلك؟

ـ تقول إن بإمكانك إبقائي قدر ما تشائين.

يُضحكها ذلك وتمشط شعري لفك العقد التي به، ثم تصمت. هذه الحجرة نوافذها مفتوحة وأرى من خلالها مسطحًا أخضر، وحديقة خضراوات، وأشياء صالحة للأكل تنمو في صفوف، وزهور الأضاليا الحمراء المدببة، وغرابًا يحمل بمنقاره شيئًا ثم ببطء يشطره نصفين، يأكل النصف الأول ثم يتبعه بالآخر.

تقول لي:

ـ تعالي معي إلى البئر.

ـ الآن؟

ـ ألا يناسبك الذهاب الآن؟

تقول ذلك بطريقة تجعلني أتساءل عما إذا كان الذهاب شيئًا لا يُفترض بنا أن نفعله.

ـ هل هذا سر؟

ـ ماذا؟

ـ أقصد، هل يُفترض ألَّا أخبر به أحدًا؟

تديرني، كي أصبح في مواجهتها. لم أكن قد نظرت فعلًا في عينيها، حتى الآن. تبدو عيناها زرقاوين غامقتين ومنقَّطتين بدرجات أخرى من الأزرق. وفي هذا الضوء يظهر أن لديها شاربًا.

ـ لا أسرار في هذا المنزل، هل تسمعين؟

لا أريد أن أجيبها ولكني أشعر أنها تريد جوابًا.

ـ هل تسمعينني؟

ـ آه.

ـ ليست آه. إنها نعم. ما هي إذن؟

ـ إنها نعم.

ـ نعم، ماذا؟

ـ نعم، لا أسرار في هذا المنزل.

تقول:

ـ حيثما يوجد سر، يوجد عار، والعار شيء لسنا بحاجة إليه.

ـ فهمت.

أشهق شهقة قوية حتى لا أبكي.

تضع ذراعها حولي:

ـ أنت صغيرة على الفهم.

حالما تقول ذلك، أدرك أنها مثل كل الآخرين تمامًا، وأتمنى لو أعود إلى البيت حيث جميع الأشياء التي لا أفهمها تظل دائمًا كما هي.

في الطابق السفلي، تجلب دلوًا من الزنك من حجرة غسيل الأطباق وتصطحبني عبر الحقول. أشعر في أول الأمر بعدم ارتياح في الثياب الغريبة ولكني أنسى ذلك مع متابعة السير. حقول عائلة كينسيلا واسعة ومستوية، ومقسَّمة إلى قطع طولية ذات أسوار كهربائية تقول إن عليَّ ألَّا ألمسها، إلا إذا أردت صعقة كهربائية. وحينما تهب الرياح، ينحني بعض العشب الطويل ويأخذ لون الفضة. في إحدى قطع الأرض، تقف من حولنا أبقار الفريزيان الطويلة ترعى في الأرض. ينظر بعضها إلى أعلى حينما نمر بجوارها ولكن من دون أن تبتعد أي منها. لديها ضروع كبيرة ممتلئة بالحليب وحلمات طويلة. يمكنني سماعها وهي تنتزع العشب من جذوره. يُسمع هفيف النسيم، وهو يمر عبر حافة الدلو، فيما نتابع سيرنا. لا تتحدث أي منا، على الطريقة التي لا يفعلها الناس أحيانًا وهم سعداء. وحالما تخطر ببالي هذه الفكرة، أدرك أن عكسها أيضًا صحيح. نصعد دَرَجًا ونمضي عبر مدق جافٍّ جرى شقه عبر العشب. يتعرج المدق عبر حقل طويل ترفرف فوقه فراشات بيضاء تطير مسرعة، ثم ينتهي إلى بوابة حديدية صغيرة يهبط منها درج حجري إلى بئر. تترك المرأة الدلو فوق العشب وتنزل معي.

تقول:

ـ انظري، كم من الماء هنا. من كان له أن يتصور ذلك ولم تمطر منذ مطلع الشهر؟

أهبط الدرج حتى أبلغ الماء. آخذ نفسًا وأسمع الصوت الذي يحدثه نَفَسي فوق فوهة البئر الساكنة، ولذلك أتنفس لبرهة بقوة أكبر حتى أشعر بهذه الأصوات التي أصنعها وهي ترجع إليَّ مرة أخرى. تقف المرأة ورائي، ويبدو أنها لا تهتم بكل نَفَس يرجع إليَّ صداه، وكأنما هي أنفاسها.

تقول:

ـ تذوقيها.

ـ ماذا؟

تشير.

ـ استخدمي المغرفة.

تتدلى من فوقنا مغرفة كبيرة وظل يشبه كوبًا في العارضة الحديدية المغبرة. أمد يدي إلى أعلى وأمسكها من المقبض. تمسك بحزام سروالي كي لا أسقط في الماء.

تقول:

ـ إنه عميق. كوني حذرة.

ترسم الشمس، وقد مالت الآن، صورة مهتزة لكيف نرى أنفسنا. ولبرهة أجدني خائفة. أنتظر حتى أرى نفسي لا كما كنت حينما وصلت، وكنت أبدو وكأني ابنة سمكري، ولكن كما أنا الآن، نظيفة وأرتدي ثيابًا مختلفة فيما تقف المرأة من ورائي. أغمس المغرفة وأقربها إلى شفتي. هذا الماء هو أبرد وأنظف ماء تذوقته في حياتي حتى الآن: يذكرني طعمه بمغادرة والدي، وبعدم ذهابه إلى هناك قَطُّ، وبتركه لي دون أي شيء. أغمسها مرة أخرى وأرفعها كي تصبح في مستوى أشعة الشمس. أشرب ستة مقادير من المياه وأتمنى، الآن، لو كان هذا المكان الذي لا عار فيه ولا أسرار هو بيتي. وعندئذ تعيدني المرأة إلى حيث أكون آمنة على الحشائش ثم تنزل وحدها. أسمع صوت الدلو حينما يطفو على جانبه للحظة قبل انغماسه وابتلاعه الماء، وحينما يصنع صوتًا حلوًا وبقبقة، قبل أن يُنتزع ويُرفع.

وفي أثناء عودتنا سيرًا عبر المدق والحقول، وفيما أمسك بيدها، أشعر بأنني أحفظ لها توازنها. من دوني، أنا واثقة بأنها ستقع. لا أدري كيف تتصرف حينما لا أكون هنا، وأستنتج أنها عادة ما تجلب دلوين. أحاول أن أتذكر في أي وقت آخر أحسست بمثل هذا الشعور، فأحزن لأنني لا أستطيع أن أتذكر وقتًا كهذا وأسعد، أيضًا، لأنني لا أستطيع.

في تلك الليلة، أتوقع منها أن تجعلني أجثو على ركبتيَّ، ولكنها بدلًا من ذلك تتركني وتخبرني أن بإمكاني أن أؤدي بعض الصلوات القصيرة في فراشي، لو

كان من عادتي أن أصلي. لا يزال ضوء النهار ساطعًا وقويًّا. تهم بإسدال بطانية فوق عمود الستارة، كي تحجبه، ولكنها تتوقف.

ـ هل تفضلين لو تركته؟

أقول:

ـ آه... نعم.

ـ هل تخافين الظلام؟

أريد أن أقول إني أخافه ولكني أخاف أيضًا أن أقول ذلك.

تقول:

ـ لا بأس. لا يهم. يمكنك استخدام الحمَّام المجاور لغرفتنا ولكن توجد هناك أيضًا نونية، إذا كنت تفضلين.

أقول:

ـ سأكون بخير.

ـ هل أمك بخير؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أمك. هل هي بخير؟

ـ اعتادت أن تصاب بالغثيان في الصباح ولكنها الآن لا تصاب.

ـ لماذا لم يُدخَل الدريس؟

ـ ليس لديها ما يكفي كي تدفع للرجل. لقد دفعت له أجرة السنة الماضية فقط.

ـ أعانها الله.

تفرد كشكشات الملاءة من حولي وتثنيها.

ـ هل تظنين أنها ستشعر بالإهانة إذا أرسلت إليها بضعة شلنات؟

ـ بالإهانة؟

ـ هل تظنينها سترفض؟

أفكر في ذلك لبرهة، وأفكر فيما لو كنت مكان والدتي.

ـ لن تشعر بالإهانة، ولكن والدي قد يشعر بذلك.

تقول:

ـ آه فهمت. والدك.

تميل نحوي وتقبلني، قبلة باردة، وتقول طابت ليلتك. أجلس حينما تغادر وأنظر حولي بالغرفة. قطارات بكل الألوان تتسابق عبر ورق الحائط. لا توجد مسارات لهذه القطارات ولكن يقف هنا وهناك صبي صغير يلوح بيديه من بعيد. يبدو سعيدًا ولكنَّ جزءًا مني يشعر بأسى شديد إزاء كل صورة له. أنقلب على جنبي، ومع أنني أعرف أنها لا تريد أيهما، أتساءل عما إذا كانت والدتي سوف تلد بنتًا أو ولدًا هذه المرة. أفكر في شقيقاتي اللائي لم يذهبن بعد إلى الفراش. سوف يقذفن كعكاتهن المصنوعة من الصلصال في الحائط الجملوني للمبنى الخارجي، وحينما يأتي المطر، سوف يلين الصلصال ويصير طينًا. كل شيء يتغير إلى شيء آخر، ويتحول إلى صورة مما كان عليها من قبل.

أبقى مستيقظة قدر ما أستطيع، ثم أُجبر نفسي على النهوض وأستخدم النونية، ولكن لا تخرج مني سوى بضع قطرات. أعود إلى الفراش، وأنا شبه خائفة، ثم يغلبني النعاس. في وقت ما خلال الليل، يبدو أنه متأخر جدًّا، تدخل عليَّ المرأة. ألزم السكون وأتنفس كما لو أنني لم أستيقظ. أشعر بالمرتبة تغوص، حينما تجلس بثقلها على السرير.

تقول:

ـ أعانك الله أيتها الطفلة. لو كنتِ ابنتي، لما تركتُك قَطُّ في منزل مع غرباء.

٣

أستيقظ فجأة في هذا المكان الجديد على شعوري القديم بالدفء والبرودة معًا. لا تلحظ السيدة كينسيلا ذلك إلا لاحقًا خلال النهار، حينما تأتي كي تُغير ملاءة السرير.

تقول:

ـ يا إلهي العلي القدير.

ـ ماذا جرى؟

ـ هل ترين؟

ـ ماذا جرى؟

أريد أن أخبرها، من فوري، وأعترف بفعلتي كي تعيدني إلى بيتنا وينتهي الأمر.

تقول:

ـ هذه المراتب القديمة تنضح بالرطوبة. إنها تنضح بالرطوبة دائمًا. ماذا كنت أظن، حينما وضعتك عليها؟

نسحبها على الدرج، ونضعها بالخارج في الفناء الذي تسطع عليه الشمس. يقترب الكلب ويتشممها، ويوشك أن يرفع رجله ويبول عليها.

تصيح بصوت صارم:

ـ ابتعد من هنا.

يقول كينسيلا وقد عاد من الحقول:

ـ لماذا كل هذا؟

تقول:

ـ إنها المرتبة. هذا الشيء اللعين ينضح بالرطوبة. ألم أقل إن هذه الغرفة رطبة؟

يقول:

ـ للإنصاف، فقد قلت. ولكن لم يكن ينبغي أن تسحبيها بمفردك على الدرج.

تقول:

ـ لم أكن بمفردي. حصلت على بعض المساعدة.

ننظفها ونفركها بمنظف وماء ساخن ثم نتركها تحت الشمس كي تجف.

تقول:

ـ يا له من شيء سيئ. بداية سيئة، للغاية. بعد كل ذلك، أظننا بحاجة إلى بعض شرائح اللحم.

تُسخن المقلاة وتقلي بعض شرائح اللحم، وحبَّات طماطم قطعتها أنصافًا، تقليها واضعة جانبها المقطوع في مواجهة المقلاة. إنها تحب التقطيع والفرك وترتيب الأشياء، وتحب أن تُسمي الأشياء بمسمياتها.

تقول:

ـ شرائح اللحم.

ثم تضع الشرائح فوق المقلاة التي تغلي.

ـ اركضي إلى هناك وائتني ببعض البصل الأخضر أيتها الفتاة الطيبة.

أركض إلى حديقة الخضراوات وأجلب بعض البصل الأخضر وأعود، بأقصى سرعة لي، كما لو أن المنزل يحترق والماء هو ما أُرسلت لجلبه. لا أدري إن كان هذا يكفي ولكن المرأة تضحك.

ـ حسنا، لن ينفد مخزوننا من البصل، على أي حال.

تكلفني بتسخين الخبز، وتشعل لي الشواية، وتريني كيف يجب أن أقلب الخبز حينما يُحمَّص أحد جانبيه، كما لو أنه شيء لم أفعله قَطّ، ولكني حقًّا لا ألقي بالًا، تريد مني أن أؤدي الأشياء بطريقة صحيحة، وأن تعلمني.

ـ هل نحن جاهزتان؟

أقول:

ـ آه... أجل.

ـ فتاة مُطيعة. اذهبي إلى هناك وناده.

أخرج وأناديه بالنداء الذي علمتني إياه والدتي، عبر الحقول: ـ كو هوووووو!

يأتي كينسيلا بعد بضع دقائق، ضاحكًا. ويقول: ـ الآن لدينا صيحة رائعة. أشك أن هناك طفلًا آخر في ويكسفورد لديه رئتان أرق من هاتين.

يغسل يديه ويجففهما، ثم يجلس إلى المائدة ويضع زبدًا على رغيفه. ولنعومة الزبد، ينزلق على السكين، ويُفرد بسهولة.

ـ قالوا في أخبار الصباح إن مُضرِبًا آخر عن الطعام قد مات.

ـ حقًّا؟

ـ نعم. تُوفي ليلًا، يا له من مسكين. أليست حال بائسة؟

تقول المرأة:

ـ ليرحمه الله. ليست هذه طريقة للموت.

يقول:

ـ ألن يجعلك ذلك شاكرة ممتنة، على الرغم من ذلك؟ رجل جوَّع نفسه حتى الموت وأنا هنا في يوم رائق وتطعمني امرأتان.

تقول المرأة:

ـ ألا تستحق ذلك؟

يقول:

ـ لا أدري إن كنت أستحقه. ولكن هذا ما يحدث على أي حال.

* * *

أمضي النهار كله أساعد المرأة على أعمال المنزل. تريني الآلة الكبيرة البيضاء الموصولة بالكهرباء، إنها مجمدة يُحفظ بها ما تسميه «موادَّ قابلة للتلف» لأشهر دون أن تفسد. نصنع مكعبات الثلج، ونمر على كل شبر في الأرضية بآلة كانسة، ونحصد بطاطا جديدة ونعد سلطة كولسلو ورغيفين، وبعدئذ تجمع الملابس من حبل الغسيل وهي لا تزال رطبة وتنصب لوحًا ثم تبدأ الكي. إنها تشبه الرجل، فهي تؤدي كل ذلك دون استعجال، ولكن لا أحد منهما فعلًا يتوقف. يدخل كينسيلا ويُعد لنا جميعًا الشاي ويشرب شايه واقفًا ومعه حفنة من بسكويت كيمبرلي، ثم يخرج مرة أخرى.

ولاحقًا، يأتي باحثًا عني.

ينادي:

ـ هل الفتاة الصغيرة هنا؟

أخرج إلى الباب.

ـ هل يمكنك أن تركضي؟

ـ ماذا؟

يقول:

ـ هل أنت سريعة في الركض؟

أقول:

ـ أحيانًا.

ـ حسنًا، اركضي إلى نهاية الشارع حتى تصلي إلى الصندوق ثم عودي.

أقول:

ـ الصندوق؟

ـ صندوق البريد. سوف ترينه هناك. أسرعي قدر ما تستطيعين.

أنطلق، مسرعة، حتى أبلغ نهاية الشارع وأجد الصندوق وأحصل على الرسائل ثم أعود مسرعة. ينظر كينسيلا في ساعته.

يقول:

ـ لا بأس بما أن هذه هي مرتك الأولى.

يأخذ مني الرسائل. جميعها أربع، ولا شيء منها بخط والدتي.

ـ هل تعتقدين أن أيًّا منها تحوي نقودًا؟

ـ لا أدري.

ـ كنت ستعرفين لو كانت بها نقود، حتمًا. النساء يمكنهن أن يشممن رائحة النقود. هل تعتقدين أن بها أخبارًا؟

أقول:

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ـ هل تعتقدين أن بها دعوة لحفل زفاف؟

أود أن أضحك.

يقول:

ـ لن يكون حفل زفافك على أي حال. فأنت صغيرة جدًّا على الزواج. هل تعتقدين أنك سوف تتزوجين؟

أقول:

ـ لا أدري. ماما تقول إنه لا ينبغي أن آخذ هدية من رجل.

يضحك كينسيلا.

ـ لعلها على صواب في هذه. لكن مع ذلك، ليس هناك رجلان متماثلان. ويجب أن يكون رجلًا سريعًا ذلك الذي سيلحق بك، يا ذات الساقين الطويلتين. سوف نجربك مرة أخرى غدًا، ونرى إذا لم يكن بوسعنا أن نحسِّن وقتك.

ـ هل يجب أن أكون أسرع؟

يقول:

ـ آه، أجل. حينما يحين وقت عودتك إلى البيت سوف تركضين مثل رنَّة. لن يكون في الأبرشية رجل يمكنه اللحاق بك دون شبكة طويلة اليد ودراجة سباق.

في تلك الليلة، بعد العَشاء، وفي حين يطالع كينسيلا صحيفته في الردهة، تجلس المرأة أمام الموقد وتخبرني أنها تعتني ببشرتها.

تقول:

ـ هذا سر. لا يعرفه كثيرون.

تُخرج علبة «ويتابكس» من خزانة الطعام، وتتناول واحدة، لا مغمسة بالحليب في وعاء، بل جافة، من يدها مباشرة.

ـ انظري إليَّ. ليست لديَّ بثور كثيرة.

وبالفعل، ليست لديها. بشرتها صافية.

ـ ولكنك قلت إنه لا توجد أسرار هنا.

ـ آه، هذا أمر مختلف، وأَشبه بوصفة سرية.

تُناولني واحدة، ثم أخرى وتلاحظني وأنا آكلهما. طعمهما يشبه قليلًا ما يجب أن يكون عليه طعم اللحاء الجاف لشجرة ولكني لا أبالي حقًّا، إذ أجد جزءًا مني يسعده أن أرضيها. أتناول خمس قطع خلال مشاهدة نشرة أخبار التاسعة فيما كانت تظهر بها والدة المُضرِب عن الطعام الذي مات، وأعمال شغب، ثم رئيس الحكومة، وبعده أشخاص أجانب من أفريقيا يموتون جوعًا، ثم أخبار الطقس التي تقول إن الطقس سيكون لطيفًا لأسبوع آخر أو أكثر. تُجلسني المرأة على حجرها خلال كل ذلك وتداعب قدميَّ العاريتين وهي شاردة البال.

تقول:

ـ لديك أصابع جميلة وطويلة في قدميك. يا لهما من قدمين جميلتين.

وبعد ذلك، تجعلني أستلقي على السرير قبل النوم وتزيل الشمع من أذنيَّ بدبوس شعر.

ـ كان بإمكانك أن تزرعي لقلقي في الشمع الذي كان بهما. ألا تنظف لك أمك أذنيك؟

أقول بحذر:

ـ ليس لديها وقت أبدًا.

تقول:

ـ أظن أن المسكينة ليس لديها وقت. وهذا بسببكم كلكم.

تمسك بفرشاة الشعر عندئذ وأسمعها وهي تحصي بنبرة هامسة حتى مائة ثم تتوقف وتجدله بشكل متهدل. يغلبني النعاس سريعًا في تلك الليلة وحينما أستيقظ، لا أجد الشعور القديم نفسه.

وفي وقت لاحق من ذلك الصباح، حينما ترتب السيدة كينسيلا الفراش، تنظر إليَّ وهي مسرورة.

تقول:

ـ مظهرك أفضل بالفعل، هل ترين؟ كل ما تحتاجين إليه هو العناية.

٤

وهكذا تمضي الأيام. دائمًا هناك ما أنتظر حدوثه، وأنتظر الارتياح الذي أشعر به حينما لا أصحو على فراش مبلل، ولا أرتكب خطأ أو حماقة كبيرة، ولا أكسر شيئًا، ولكن كل يوم يأتي يشبه الذي سبقه إلى حد كبير. نستيقظ باكرًا مع دخول الشمس إلى المنزل ونتناول بيضًا أُعد بطريقة أو بأخرى مصحوبًا بعصيدة وخبز على الفطور. يرتدي كينسيلا قبعته ويخرج عائدًا إلى الفناء. أعد أنا والمرأة بصوت مسموع قائمة بالأعمال التي يجب تأديتها، ثم نؤديها وحسب: نجر الراوند، ونصنع الكعك، وندهن الحواف السفلى للحوائط، ونخرج جميع أغطية السرير من المكبس الساخن، ونزيل شِباك العنكبوت، ونعيد جميع الملابس النظيفة مرة أخرى، ونصنع كعكًا مدورًا، وننظف حوض الاستحمام، ونكنس الدرج، ونلمع الأثاث، ونغلي بصلًا لصنع صلصة البصل ونضعها في عبوات بالمجمدة، ونخرج الحشائش من أحواض الزهور، وحينما تغيب الشمس، نسقي الأشياء. وحينئذ يأتي وقت طعام العشاء والسير عبر الحقول إلى البئر. وفي كل مساء يُفتح التلفزيون لمشاهدة نشرة أخبار التاسعة، وعندئذ وبعد أخبار الطقس، يُقال لي حان وقت النوم.

وأحيانًا يأتي أناس إلى المنزل ليلًا. يمكنني سماعهم وهم يلعبون الورق ويتحدثون. يتبادلون السباب والاتهامات بالخداع والغش في اللعب، وتُلقى قطع النقود فيما يبدو أنه طبق من صفيح، وأحيانًا تُفرغ جميع النقود فيما يبدو أنه مَخبأ لذلك. وذات يوم جاء شخص وعزف بالملاعق. وفي يوم آخر كان هناك ما يبدو أنه حمار، وصعدت المرأة كي تأخذني، قائلة إن بإمكاني النزول أنا الأخرى، لأنه لا يمكن لأحد أن يغمض جفنيه ما دام الحمار آس كايسي بالمنزل. نزلت وأكلت حلوى المكرون، ثم جاء رجلان إلى الباب يبيعان قسائم سحب، ويقولان، إن عوائدها سوف تُخصص لبناء سقف جديد للمدرسة.

قال كينسيلا:

ـ بالطبع.

ـ لم نكن نتوقع ذلك حقًّا...

قال كينسيلا:

ـ تفضلا. ليس معنى أنه ليس لديَّ أبناء، أن أقبل رؤية المطر يهطل على أبناء الآخرين.

وهكذا دخلا وأعد مزيد من الشاي، وأفرغت المرأة منفضة السجائر، ووزعت ورق اللعب، وقالت إنها تأمل أن يتعلم الجيل الحالي من الأطفال في تلك المدرسة، لو كان لديهم ميل إلى لعب الورق، قواعد لعبة «الخمس والأربعون» بشكل سليم، لأنه أصبح واضحًا أن هذا الجيل تحديدًا يواجه صعوبات في فهمها، وأن بعض الأشخاص لم يكونوا يعرفون تمامًا كيف يلعبونها، إلا في بعض الأحيان، حينما تناسبهم.

ـ انتبه، هناك من يسخر منا.

ـ لا مفر من الاستماع إلى صوت الرعد.

ـ من السهل أن أعرف مَن الذي توشك أن تنفد نقاطه.

قالت:

ـ أنا أبلي بلاء حسنًا، وسأظل كذلك حتى النهاية.

ولسبب ما، جعل ذلك آس كايسي ينهق، وهو ما أضحكني، ثم بدأوا جميعًا يضحكون حتى قال أحد الرجلين: ـ هل نحن هنا في مباراة للقهقهة أم سنلعب الورق؟

مما جعل آس كايسي ينهق مرة أخرى، ثم راح ينهق مرة تلو أخرى.

٥

وذات يوم بعد الظهيرة، وفي حين كنا نُقمِّع الكشمش لإعداد المربى، وحينما أوشكنا على إتمام ذلك وانتهينا من وزن السكر بالفعل وتسخين الآنية، يدخل كينسيلا مقبلًا من الفناء ويغسل يديه ويجففهما ثم ينظر إليَّ نظرة لم ينظرها من قبل.

ـ أظن أنه قد مضى زمن لم نلبسك ثيابًا لائقة، أيتها الصغيرة.

أرتدي سروالًا كحليًّا وقميصًا أزرق أخرجتهما المرأة من الخزانة ذات الأدراج.

تقول المرأة:

ـ ماذا بها؟

ـ غدًا الأحد، وهي بحاجة إلى شيء أفضل تحضر به القداس. لن أسمح لها بالذهاب مثلما ذهبت الأسبوع الماضي.

ـ أليست نظيفة وأنيقة؟

ـ تعرفين ما أقصد، يا إدنا.

ثم يتنهد.

ـ لماذا لا تصعدين وتبدلين ثيابك ونذهب جميعًا إلى جوري؟

تستمر المرأة في نقل الكشمش من المصفاة، وتمد يدها، ولكنها تصبح أبطأ قليلًا في كل مرة عن سابقتها. وفي لحظة ما، أحسبها سوف تتوقف ولكنها تستمر حتى تنتهي منه، ثم تنهض وتضع المصفاة على الحوض وتُصدر صوتًا لم أسمعه من أحد قَطُّ، ثم ببطء تصعد إلى الطابق العلوي.

ينظر كينسيلا إليَّ ويبتسم ابتسامة مصطنعة، ثم ينظر إلى حافة إفريز النافذة حيث حطَّت عصفورة كي تستريح وتُعيد ضبط جناحيها. يبدو الطائر الصغير قلقًا، كما لو أنه يشتم رائحة القطة، التي تجلس هناك أحيانًا. يبدو أن عينَي كينسيلا ليستا ساكنتين تمامًا في رأسه. يبدو وكأن هناك مشكلة كبيرة تتمدد داخل رأسه. يعبث بأصابع قدمه في رِجل كرسي وهو ينظر باتجاهي.

يقول:

ـ يجب أن تغسلي يديك ووجهك قبل الذهاب إلى المدينة. ألم يهتم أبوك حتى بتعليمك ذلك القدر؟

أتجمد في الكرسي، وأنتظر حدوث ما هو أسوأ بكثير، ولكن كينسيلا لا يفعل شيئًا، ينهض واقفًا وحسب، وهو مستغرق في خضم كلامه. وبمجرد أن يستدير، أسرع نحو الدرج ولكن حالما أصل إلى الحمَّام، لا ينفتح الباب.

تقول المرأة بعد برهة وهي بالداخل:

ـ لا بأس.

ثم بعد قليل تفتحه.

ـ آسفة على جعلك تنتظرين.

لقد كانت تبكي ولكنها لا تخجل من ذلك.

ـ سيكون جميلًا أن تكون لك بعض الثياب الخاصة بك.

تقول ذلك ثم تمسح عينيها.

ـ وجوري مدينة جميلة. لا أدري لماذا لم أفكر في اصطحابك إلى هناك قبل الآن.

* * *

المدينة مزدحمة وبها شارع رئيسي واسع. خارج المتاجر، تتدلى أشياء كثيرة ومختلفة في الشمس. توجد سلال بلاستيكية تمتلئ بكرات شواطئ وألعاب نفخ. وهناك دولفين شفاف يبدو وكأنه يرتجف وسط هواء بارد. وتوجد جواريف بلاستيكية ودلاء متشابهة وقوالب لبناء قلاع رملية، وهناك رجال كبار يتناولون الآيس كريم من العلب بملاعق بلاستيكية صغيرة، ونباتات في مزهريات تبدو مثيرة عند ملامستها، ورجل يبيع سمكًا ميتًا في شاحنة صغيرة.

يضع كينسيلا يده في جيبه ويناولني شيئًا.

ـ يمكنك أن تشتري آيس كريم بهذا.

أفتح يدي وأحملق إلى الجنيه.

تقول المرأة:

ـ ألا يمكنها أن تشتري به نصف دزينة من الآيس كريم؟

يقول كينسيلا:

ـ آه، هي وما تشاء، هذا للتدليل فقط.

تقول المرأة:

ـ ماذا تقولين؟

أقول:

ـ شكرًا. شكرًا لك.

يضحك كينسيلا:

ـ إذن، اجعليه يدوم معك واصرفي منه بحكمة.

تصطحبني المرأة إلى تاجر أقمشة، حيث تشتري علبة من إبر الرفو من إحدى الطاولات وأربع ياردات من مشمَّع مرقط بصور ثمار كمثرى صفراء. وبعدئذ نصعد إلى الطابق العلوي حيث تُباع الأقمشة. تختار أثوابًا قطنية وبعض السراويل والبناطيل وبضعة قمصان ثم ندخل وراء ستارة حتى أقيسها.

تقول البائعة:

ـ أليست طويلة؟

تقول المرأة:

ـ نحن جميعًا طويلات.

تقول البائعة:

ـ إنها صورة طبق الأصل من أمها. يمكنني رؤية ذلك من الآن.

ثم تقول إن الثوب الأرجواني هو الأنسب والأجمل، فتوافقها المرأة. تشتري لي قميصًا مرقطًا، أيضًا، بأكمام قصيرة ويشبه كثيرًا ذلك الذي كانت ترتديه يوم وصولي، وبنطالًا أزرق داكنًا، وحذاء جلديًّا أسود اللون برباط صغير وإبزيم في مقدمته، وبعض الملابس الداخلية وجوارب كاحل بيضاء. تُناولها الفتاة الفاتورة، فتخرج حافظة نقودها وتدفع ثمنها جميعًا.

تقول البائعة:

ـ هنيئًا ما اشتريت من ثياب. ألا ترين كم هي والدتك كريمة معك؟

حينما نخرج إلى الشارع، تبدو الشمس قوية مرة أخرى، وشديدة السطوع. يتمنى جزء مني لو تتلاشى، وأن تحجبها الغيوم حتى أرى بوضوح. نقابل نسوة تعرفهن المرأة. يحدق بعضهن فيَّ ويسألنَها عمَّن أكون. إحداهن تحمل رضيعًا صغيرًا في عربة أطفال. تنحني السيدة كينسيلا وتداعبه فيسيل بعض لعابه ويبدأ في البكاء.

تقول الأم:

ـ إنه يستغربك. لا يهمك ذلك.

نقابل امرأة أخرى بعينين تشبهان معولين، وتسألها وهي تقصدني لمن الطفلة، وإلى أي عائلة أنتمي؟ حينما تخبرها، تقول: ـ آه، ألا تمنحكما بعض الرفقة مع ذلك، كان الله بعونكما.

تتوتر السيدة كينسيلا وتقول:

ـ اعذريني، ولكن زوجي ينتظرني وأنت تعرفين كيف يتصرف هؤلاء الرجال.

تقول المرأة:

ـ وكأنهم ثيران أوغاد، هكذا يتصرفون. ليس لديهم ذرة من صبر.

بينما انعطفنا عند الزاوية، تقول السيدة كينسيلا:

ـ سامحني يا رب، ولكني لن أحتمل رؤية هذه المرأة مرة أخرى، ولو بعد حين.

نذهب إلى الجزار لشراء بعض شرائح اللحم والنقانق وبودنج أسود على شكل حدوة حصان، ثم إلى الصيدلاني حيث تطلب دواء حموضة، وبعد ذلك نقصد

متجرًا صغيرًا تسميه «معرض الهدايا» حيث تباع بطاقات تهنئة، وورق ملاحظات، وقطع حلي جميلة من خزانة ذات أرفف دوارة.

ـ ألن يأتي عيد ميلاد ماما قريبًا؟

أقول من دون أن أكون متأكدة:

ـ بلى.

ـ سنشتري لها بطاقة إذن.

تطلب مني أن أختار واحدة، فأختار بطاقة عليها صورة قطة تبدو خائفة وهي تجلس أمام حوض من زهور الأضاليا الصفراء.

تقول المرأة الواقفة خلف طاولة البيع:

ـ لم يتبقَّ الآن وقت طويل حتى يعودوا إلى المدرسة. أليس رائعًا أن ترتاحي من إزعاجهم؟

تقول السيدة كينسيلا:

ـ هذه لا تسبب أي إزعاج.

وتدفع ثمن البطاقة بالإضافة إلى بضع ورقات لكتابة الملاحظات ورزمة ظروف.

ـ لن أفتقد أحدًا سواها حينما تذهب.

تقول المرأة:

ـ عجيب.

وقبل أن نعود إلى السيارة، تطلقني في متجر للحلوى. أختار على مهل، ثم أناول البائع الجنيه وأسترد الفكة.

تقول حينما أخرج:

ـ ألم تصرفيه بحكمة؟

يقف كينسيلا بالسيارة في الظل، وقد فتح النوافذ وراح يقرأ الجريدة.

يقول:

ـ ها؟ هل اشتريتما كل شيء؟

تقول:

ـ نعم.

يقول:

ـ عظيم.

أُعطيه الآيس كريم وأعطيها لوح شوكولاتة، ثم أضطجع في المقعد الخلفي ألوك اللبان الصلب، وأحرص على ألَّا أختنق ونحن نجتاز مطبات الطريق. أستمع إلى خشخشة الفكة في جيبي وصوت الريح المندفعة عبر السيارة وحديثهما وبعض ما يتبادلانه من أخبار وهما بالمقعد الأمامي.

بينما نصل إلى الفناء، نجد سيارة أخرى تنتظر خارج الباب. وهناك امرأة أمام مدخل المنزل، تذهب وتجيء، وهي عاقدة ذراعيها.

ـ أليست هذه ابنة هاري ريدموند؟

يقول كينسيلا:

ـ لا أحب رؤية ذلك.

تقول وهي تندفع نحوهما:

ـ يا جون. آسفة على إزعاجك ولكن مايكل مات ولا أحد على الإطلاق بالبيت. الجميع يعملون بالخارج على الحصَّادات، والله وحده يعلم متى يعودون، وليست لديَّ طريقة كي أبلغهم الخبر. نحن في ورطة حقًّا. هل يمكنك أن تأتي وتساعدنا على حفر القبر؟

* * *

تقول المرأة فيما بعد في اليوم نفسه:

ـ لا أرى أن هذا المكان سوف يناسبكِ بأي حال، ولكن لا يمكنني أن أتركك هنا. لذلك استعدي وسوف نتوكل على الله ونذهب.

أصعد إلى الطابق العلوي، وأرتدي الثوب الجديد وجورب كاحل وحذاء.

تقول حينما أنزل:

ـ تبدين جميلة. جون ليس دائمًا متساهلًا ولكنه نادرًا ما يخطئ.

بينما نمضي في الطريق، نشعر بشيء من الحزن في الأجواء، وبشيء ربما يقع ويغير الأمور. نمر بمنازل أبوابها ونوافذها مفتوحة على مصاريعها، وبحبال غسيل طويلة تهتز، ومداخل مرصوفة بالحصى تقود إلى مدقات أخرى. وعند المنعطف، يستند إلى إحدى البوابات فرس قزم كستنائي اللون، ولكن حينما أمد يدي وأمسح على أنفه، يصهل وينفر. وخارج كوخ، يظهر كلب أسود يغطي شعره المجعد ظهره كله وينبح علينا، بقوة، عبر قضبان بوابة. في التقاطع الأول، نصادف عِجلة مذعورة وفي النهاية تركض بمحاذاتنا حتى تضل الطريق. وفي أثناء سيرنا، تهب رياح قوية ثم تهدأ، ثم تشتد مرة أخرى عبر السياجات الطويلة المغطاة بالورد وعبر الأشجار العالية. وفي الحقول، نرى الحصَّادات تحصد القمح والشعير والشوفان وتخزن الذرة، تاركة خلفها صفوفًا طويلة من القش. نصادف رجالًا على جرارات زراعية، تمضي باتجاهات شتى وتجر البالات المكبوسة إلى الحقول والمقطورات الممتلئة بالحبوب إلى الجمعية التعاونية. تنقض الطيور، في رعونة، كي تأكل البذور المتساقطة في منتصف الطريق. وبعد ذلك، نصادف رجلين بصدرين عاريين، ولهما أعين شديدة البياض ووجهان اسمرَّا واغبرَّا بشدة.

تتوقف المرأة لتحيتهما وتخبرهما بوجهتنا.

يقول أحدهما:

ـ رحمه الله. ألم يرحل سريعًا على أي حال؟

يقول الآخر:

ـ بلى. ولكن ألم يبلغ السبعين؟ وأي مزيد يمكن لأي أحد منا أن يتطلع إليه؟

نواصل المشي، ونقف ملاصقين للسياجات والحفر حتى ندع الأشياء تمر.

تسأل المرأة:

ـ هل سبق أن ذهبتِ إلى جنازة لإلقاء نظرة الوداع؟

ـ لا أظن ذلك.

ـ حسنًا، ربما يجب أن أخبركِ أنه سيكون هناك رجل ميت في تابوت، وأناس كثيرون وبعضهم ربما يتجاوزون الحد قليلًا.

ـ يتجاوزونه في ماذا؟

تقول:

ـ في الشراب.

بينما نصل إلى المنزل، أرى عددًا من الرجال يتكئون على حائط قصير ويدخنون. هناك شريط أسود على الباب ومصباح لا يكاد يضيء المنزل، ولكننا حينما ندخل، نجد المطبخ ساطعًا، ويغص بأشخاص يتحادثون. المرأة التي طلبت من كينسيلا حفر القبر حاضرة هناك، وتجهز الساندويتشات. توجد زجاجات كبيرة من عصير الليمون الأحمر والأبيض، وجعة قوية، وفي وسط كل هذا، تابوت خشبي كبير يسجى داخله رجل عجوز ميت. يداه مضمومتان وكأنما قد مات وهو يصلي، وتلتف حول أصابعه مسبحة من الخرز. يجلس بعض الرجال حول التابوت، مستخدمين الجزء المغلق كمنضدة يضعون عليها أكوابهم. وكينسيلا أحد هؤلاء.

يقول:

ـ ها هي. يا ذات الساقين الطويلتين. تعالي إلى هنا.

يجذبني ويُجلسني على حِجره ويعطيني رشفة من كوبه.

ـ هل تحبين ذلك المذاق؟

ـ كلَّا.

يضحك.

ـ يا لك من فتاة طيبة. لا تتذوقيه أبدًا. إذا بدأت، فربما لا تتوقفين أبدًا، ثم ينتهي بك الحال لتصبحي مثلنا.

يصب لي عصير الليمون الأحمر في كوب. أجلس على حجره وأنا أشربه وأتناول كعكات الملكة من علبة البسكويت وأنظر إلى الرجل الميت، آملة أن يفتح عينيه.

يأتي الناس ويذهبون، ويدخلون ويخرجون، ويتصافحون، ويشربون ويأكلون، وينظرون إلى الميت، ويقولون يا لبهاء جثمانه، ألا يبدو سعيدًا الآن وقد حانت نهايته، مَن الذي جهَّز جثمانه؟ يتحدثون عن توقعات الطقس، ومحتوى الرطوبة في الذرة، وحصص الحليب، والانتخابات العامة المقبلة. أشعر بأنني أصبحت ثقيلة على حجر كينسيلا.

ـ هل ثقلتُ عليك؟

يقول:

ـ ثقلتِ؟ أنت مثل ريشة، أيتها الطفلة. ابقي في مكانك.

أسند رأسي إليه، ولكن يعتريني ملل، وأتمنى لو كان يوجد ما يمكنني عمله أو كان هناك أطفال آخرون يرغبون في اللعب.

أسمع المرأة تقول:

ـ الفتاة تزداد ضيقًا.

تقول أخرى:

ـ ماذا يضايقها؟

تقول:

ـ آه، ليس هذا مكانًا مناسبًا للطفلة، حقًّا. لم أكن أرغب في عدم المجيء ولم أكن لأتركها وحدها.

ـ حقًّا، سوف أصطحبها إلى المنزل معي، يا إدنا. أنا ذاهبة الآن. ألا يمكنك القدوم وأخذها في طريقك؟

تقول:

ـ آه، لا أدري إن كان يجب عليَّ ذلك.

ـ ابنتي سوف تمنحها بعض الرفقة. ألا يمكنهما أن تلعبا معًا؟ وذلك الرجل هناك لن يعبأ ما دامت تجلس على ركبته.

تضحك السيدة كينسيلا. لم أسمعها تضحك هكذا من قبل.

ـ بالتأكيد ربما، يمكنك ذلك لو كنت لا تمانعين، يا ميلدريد... ما الضير؟ ولعلك تعرفين أننا سنلحق بك سريعًا.

تقول المرأة:

ـ لا بأس. لا يهمك.

بينما نخرج إلى الطريق، ويودع كلانا الآخر، تمشي ميلدريد بخطى لا أكاد أجاريها، وحالما تنعطف تبدأ الأسئلة. يبدو أن الفضول يقتلها، ولا أكاد أجيب سؤالًا حتى تطلق التالي: «في أي غرفة وضعاك؟ هل أعطاك كينسيلا نقودًا؟ كم؟ هل تشرب ليلًا؟ وماذا عنه؟ هل يلعبان الورق هناك كثيرًا؟ مَن كان هناك؟ من أجل ماذا كانا يبيعان بطاقات السحب؟ هل تؤدين الصلوات؟ هل تضع الزبد أم السمن في فطائرها؟ أين ينام الكلب العجوز؟ هل المُجمِّدة ممتلئة عن آخرها؟ هل هي بخيلة أم مسموح لها بالإنفاق؟ ألا تزال ثياب الطفل معلقة بالخزانة؟».

أجيب عنها جميعًا بسهولة، وحينما أسمع السؤال الأخير، أقول: ـ ثياب الطفل؟

تقول:

ـ نعم. بالتأكيد إذا كنت تنامين في غرفته، فلا بد أنك تعرفين حتمًا. ألم تنظري فيها؟

ـ حسنًا، كانت لديها ملابس كنت أرتديها منذ وصولي إلى هنا، ولكننا ذهبنا إلى جوري هذا الصباح واشترينا أشياء جديدة تمامًا.

تقول:

ـ تقصدين هذا الطقم الذي تلبسينه الآن؟ يا إلهي العلي القدير. أي أحد سيظن أنكم ستمضون معًا مائة سنة.

أقول:

ـ أنا أحب هذا الطقم. قيل لي إنه جميل.

ـ جميل؟ حسنًا. حسنًا. أعتقد أنه كذلك، بعد العيش في ثياب الموتى كل هذا الوقت.

ـ ماذا؟

ـ الابن الصغير لعائلة كينسيلا، أيتها الغبية. ألم تعرفي؟

لا أدري ماذا أقول.

ـ لا بد أن حجرًا ما قد دحرجوه حتى يجدوكِ. هل أنت متأكدة أنه لم يتبع كلبهم العجوز حتى خزان الملاط ويغرق فيه؟ هذا ما يقولون إنه حدث على أي حال.

أستمر في المشي وأحاول ألَّا أفكر فيما قالته، وإن كنت لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر إلا قليلًا. يقترب وقت غروب الشمس ولكن اليوم يبدو وكأنه بلا نهاية. أنظر إلى السماء فأرى الشمس لا تزال عالية، وبعض الغيوم، ومن بعيد أرى قمرًا مستديرًا يظهر.

ـ يقولون إن جون تناول البندقية وأخذ الكلب عبر الحقل، ولكن لم يطاوعه قلبه كي يطلق عليه النار، يا له من أحمق طيب القلب.

نواصل السير بين السياجات الكثيفة التي يبدو أن بها أشياء صغيرة تصنع خشخشة وتتحرك. ينمو البابونج عبر هذه الحفر، وكذلك المريمية الخشبية والنعناع، وهي نباتات وجدت والدتي بطريقة أو بأخرى الوقت كي تُعرِّفني بها. وبالإضافة إلى ذلك، لا تزال العِجلة المفقودة نفسها ضائعة، في جزء مختلف من الطريق.

ـ وكما تعلمين، أصابهما الشيب فجأة.

ـ ماذا تعنين؟

ـ شعرهما، ماذا غير ذلك؟

ـ ولكن شعر السيدة كينسيلا أسود.

ـ «أسود»؟ نعم، أسود بفضل وعاء الصبغة، تقصدين.

وتضحك.

أستغرب ضحكها بهذه الطريقة. وأستغرب الثياب، وكيف كنت أرتديها، والصبي الذي يظهر على ورق الحائط، وكيف أنني لم أربط قَطُّ كل ذلك معًا. سرعان ما نصل إلى حيث ينبح الكلب الأسود عبر قضبان البوابة.

تقول له:

ـ صَهْ وادخل.

تعيش في منزل ريفي تبرز من بابه الخارجي بلاطات خرسانية غير متساوية، وشجيرات زينة متضخمة ونيفوفيا طويلة تخرج من الأرض. هنا يجب أن أحمي رأسي وأنتبه لخطواتي. وبينما ندخل، نجد المكان تسوده الفوضى، فيما تدخن امرأة عجوز أمام الموقد. وهناك طفلة على كرسي عالٍ. تُصدر صرخة حينما ترى المرأة وتسقط حفنة من البازلاء الجافة على حافة الكرسي.

تقول:

ـ انظري إلى نفسك. وإلى حالتك.

لا أدري إن كانت تتحدث إلى المرأة أو الطفلة. تخلع سترتها الكارديجان وتجلس ثم تبدأ في الحديث عن العزاء: مَن كانوا هناك، ونوعية الساندويتشات التي قُدمت، وكعك الملكة، والجثمان الذي كان يرقد ملتويًا في التابوت، وحتى ذقنه الذي لم يُحلق حلاقة سليمة، وكيف جاءوا له بمسبحة وردية من البلاستيك، ذلك الأحمق المسكين.

لا أدري هل عليَّ أن أجلس أو أقف، أن أستمع أو أغادر، ولكن فيما كنت أفكر فيما يجب أن أفعل، ينبح الكلب وتُفتح البوابة ويدخل كينسيلا، ينحني حينما يصل إلى إطار الباب.

يقول:

ـ مساء الخير جميعًا.

تقول المرأة:

ـ آه، جون. لم تتأخر. دخلنا لتونا من الباب. ألم ندخل لتونا من الباب أيتها الطفلة؟

ـ بلى.

لم يرفع كينسيلا عينيه عني.

ـ شكرًا يا ميلدريد. أحسنتِ صنعًا باصطحابها إلى البيت.

تقول المرأة:

ـ العفو. إنها صغيرة وهادئة.

يقول:

ـ إنها تقول ما يجب عليها قوله، من دون زيادة. ليت هناك كثيرات منها. هل أنت جاهزة للعودة إلى البيت، يا بيتال؟

أنهض فيما يتحدث هو قليلًا، كي يلطِّف الأجواء، كعادة الناس في ذلك. أتبعه إلى الخارج حتى السيارة حيث تنتظرنا المرأة.

تقول:

ـ هل كنت بخير هناك؟

أقول:

ـ نعم.

ـ هل سألتكِ عن أي شيء؟

ـ أشياء قليلة، لا شيء يذكر.

ـ ماذا سألتك؟

ـ سألتني هل تستخدمين الزبد أم السمن في فطائركِ.

ـ هل سألتك عن أي شيء آخر؟

ـ سألتني عمَّ إذا كانت المجمِّدة ممتلئة بالأشياء.

يقول كينسيلا:

ـ ألم أقل لك ذلك.

تسأل المرأة:

ـ هل أخبرتك بأي شيء؟

لا أعرف ماذا أقول.

ـ بمَ أخبرتك؟

ـ أخبرتني أنك كان لديك ولد صغير تبع الكلب حتى خزان الملاط ومات، وأنني لبست ثيابه في قداس الأحد الماضي.

* * *

بينما نصل إلى البيت، ينهض الكلب ويأتي إلى السيارة لتحيتنا. أدرك الآن فقط أنني لم أسمع أيًّا منهما يناديه باسمه. يتنهد كينسيلا ويذهب إلى غرفة الحلابة. بينما يدخل المنزل، يقول إنه لا يرغب في النوم، وإنه لن يكون هناك زوار الليلة على أي حال، بسبب الانشغال بالعزاء... ولا يعني ذلك أنه يريد أي زوار. تصعد المرأة إلى أعلى وتبدل ثيابها، وتنزل بعد ارتداء قميص نومها. خلع لي كينسيلا حذائي وألبسني ما أعرف الآن أنها سترة الولد.

تقول:

ـ ماذا تفعل الآن؟

ـ كيف يبدو الحذاء؟ سوف تبلغ أقصى سرعتها بهذا الحذاء.

يخرج، وهو يتعثر في خطواته قليلًا، ثم يعود إلى الداخل بورقة صنفرة، ويكشط نعل حذائي الجديد حتى لا أتزحلق.

يقول:

ـ تعالي. سوف نجربه.

ـ ألم تجربه بالفعل؟ إلى أين تأخذها؟

يقول:

ـ لن نذهب أبعد من الشاطئ.

تقول:

ـ سوف تعتني بهذه الفتاة، يا جون كينسيلا. ولا تذهب من دون المصباح.

يقول:

ـ وما الحاجة إلى مصباح في ليلة كهذه؟

ولكنه يأخذه على أي حال حينما تناوله إياه.

يسطع قمر كبير بنوره على الفناء، فيما نشق طريقنا متجهَين إلى المدق. يأخذ كينسيلا بيدي في يده. وحالما يأخذها، أدرك أن والدي لم يمسك بيدي ولو مرة واحدة، وأجد جزءًا مني يود لو يترك كينسيلا يدي حتى لا أحس بهذا الشعور. إنه شعور صعب، ولكني أبدأ في الشعور بالارتياح مع استمرارنا في المشي، وأتناسى الفرق بين حياتي في بيتنا وتلك التي أعيشها هنا. يمشي بخطى صغيرة حتى يمكننا أن نمشي معًا. أفكر في المرأة التي تسكن المنزل الريفي، وكيف كانت تمشي وتتحدث، وأستنتج أن هناك فروقًا كبيرة بين الأشخاص.

حينما نصل إلى مفترق الطرق، ننعطف يمينًا، ونمضي عبر طريق حاد ومنحدر. تبدو الرياح شديدة وخشنة عند اصطدامها بالأشجار، فتمر بقوة عبر الأغصان الجافة، فيما ترتفع أوراقها وتهتز. أحس بشعور طيب حينما أرى الطريق المفتوح يمتد أمامنا، وندرك أننا، في نهايته، سنصل إلى البحر. يمتد الطريق وتبدو السماء، وكل شيء آخر، أكثر سطوعًا. يتلفظ كينسيلا ببضع كلمات لا معنى لها عبر الطريق ثم يعود إلى هدوئه المعهود، ويمر الوقت من دون أن يبدو أنه يمر ثم نجد أنفسنا في ساحة رملية مفتوحة، حيث يجب أن يصُف الناس سياراتهم. إنها مليئة بآثار إطارات السيارات وبالحفر، وبها حاوية قمامة يبدو أنها لم تُفرغ منذ مدة طويلة.

ـ ها قد وصلنا تقريبًا الآن، يا بيتال.

يقودني إلى أعلى تل منحدر ينمو على كلا جانبيه أسل طويل يتمايل ويهتز. تغوص قدماي في الرمال العميقة، ويبهرني مشهد الصعود. وعندئذ نقف فوق قمة مكان مظلم تنتهي عنده الأرض ويظهر ساحل طويل ومياه أعرف أنها عميقة وتمتد حتى تصل إلى إنجلترا. وبعيدًا، في الظلام، أرى ضوءين ساطعين يرتعشان.

يطلقني كينسيلا فأركض عبر الجانب البعيد من كثبان الرمل حتى أصل إلى حيث يتحول البحر الأسود إلى أمواج مزبدة وعالية الصوت. أركض نحوها حينما تتراجع، ثم أركض للخلف وأنا أصرخ، حينما ترتطم بي موجة أخرى. حينما يلحق بي كينسيلا، نخلع أحذيتنا. وفي بعض المناطق نمشي بمحاذاة حافة البحر الذي يزحف على الرمال من تحت أقدامنا العارية. وفي مناطق أخرى يتركني أركض. وفي مكان ما نمضي إلى داخل البحر حتى يبلغ الماء ركبتيه فيحملني فوق كتفيه.

يقول:

ـ لا تخافي!

ـ ماذا؟

ـ لا تخافي!

يصبح الشاطئ نظيفًا تمامًا، ولا تظهر به آثار أقدام كثيرة. وخلف خط متعرج في الرمل، بالقرب من الكثبان، يجرف البحر إلى الشاطئ أشياء مثل: قنينات بلاستيكية وعِصي ويد مقشة بلا رأس، وبالإضافة إلى ذلك، باب إسطبل كُسر مزلاجه.

يقول كينسيلا:

ـ هناك حصان طليق الليلة.

ثم يستمر في المشي لبرهة. المكان أهدأ هنا، بعيدًا عن ضجيج الأمواج.

ـ تعرفين أن الصيادين يجدون أحيانًا أحصنة في عرض البحر. هناك رجل أعرفه سحب مُهرًا ذات مرة ورقد الحصان مدة طويلة قبل أن يقوم. وأصبح بحال

ممتازة. لم يكن به سوى بعض التعب، بعد أن تُرك طويلًا في البحر.

يقول:

ـ هناك أشياء غريبة تحدث. شيء غريب حدث لك الليلة ولكن إدنا لم تقصد إيذاءك. إنها طيبة القلب للغاية. وتريد أن تعثر على الخير لدى الآخرين، وأحيانًا تكون طريقتها في ذلك هي أن تثق بهم، آملة ألا يخيب رجاؤها ولكنه أحيانًا يخيب.

وعندئذ يضحك، ضحكة غريبة وحزينة. لا أدري ماذا أقول.

يقول:

ـ لست مضطرة إلى قول أي شيء على الإطلاق. تذكري دائمًا أن ذلك شيء ليس عليك عمله أبدًا. كم يخسر الإنسان كلما فوَّت فرصة مثالية في ألَّا يقول شيئًا.

كل ما في الليلة يبدو غريبًا. أمشي حتى أبلغ بحرًا كان دائمًا هناك، وأراه وأشعر به وأخشاه وقت العتمة، وأستمع إلى هذا الرجل يتحدث بأشياء عن أحصنة طليقة في عرض البحر، وعن زوجته التي تثق بالآخرين حتى تعرف مَن الذي يجب عليها ألا تثق به، وأشياء لا أفهمها كل الفهم، وأشياء ربما ليست حتى موجهة إليَّ.

نواصل المشي حتى نبلغ مكانًا تبرز فيه التلال والصخور حتى تلتقي المياه. والآن وبما أننا لا نستطيع الذهاب أبعد من ذلك، فإن علينا أن نعود. ربما أدرك في طريق عودتنا السبب وراء قدومنا. تتناثر هنا وهناك أصداف مسطحة بيضاء اللون وتلمع وهي ملقاة بعدما جرفها البحر إلى الشاطئ. أنحني لأجمعها. تبدو ناعمة الملمس ونظيفة وتتفتت بين يدي. نستدير ونعود عبر الشاطئ ونستمر في المشي، ويبدو وكأننا نقطع مسافة أكبر من تلك التي قطعناها في الوصول إلى هذا المكان الذي لم نستطع اجتيازه، ثم يختفي القمر خلف سحابة تميل إلى السواد ولا نعود نرى إلى أين نتجه. وفي هذه اللحظة، يتنهد كينسيلا ويتوقف ثم يضيء المصباح.

يقول:

ـ آه، النساء غالبًا على صواب، على الرغم من ذلك. هل تعرفين في أي شيء تظهر موهبة النساء؟

ـ ماذا؟

ـ الاحتمالات. المرأة الجيدة يمكنها أن تنظر بعيدًا عبر المسار، وتشتم رائحة ما هو قادم حتى قبل أن يستشعر الرجل وجوده.

يسلط ضوء المصباح عبر الشاطئ كي يتبين آثار أقدامنا، ويتبعها في العودة، ولكن الآثار الوحيدة التي يجدها هي لقدميَّ.

يقول:

ـ لا بد أنك حملتِني إلى هناك.

أضحك حينما أتخيلني أحمله، وأضحك على استحالة ذلك، ثم أدرك أنها مزحة، وأنني فهمتها.

حينما يعود القمر للظهور، يطفئ المصباح وعلى ضوء القمر نتبين ونتبع بسهولة المسار الذي سلكناه عبر الرمال. بينما نصل إلى القمة، لا يدعني أرتدي حذائي بل يلبسني إياه. وحينئذ يرتدي حذاءه ويعقد الرباط. ننهض عندئذ، ونقف ثم ننظر خلفنا إلى المياه.

ـ انظري، توجد ثلاثة أضواء الآن فيما كان هناك اثنان فقط من قبل.

أنظر عبر البحر. وهناك أرى الضوءين يرتعشان كما كانا من قبل، ولكنْ هناك أيضًا ضوء آخر ثابت.

يقول:

ـ هل تستطيعين رؤيته؟

أقول:

ـ أستطيع ذلك. إنه هناك.

وحينئذ يطوقني بذراعيه ويحتضنني كما لو كنت ابنته.

٦

بعد أسبوع من المطر، وفي أحد أيام الخميس، يأتي الخِطاب. ليست مفاجأة بقدر ما هي صدمة. كنت قد رأيت بالفعل العلامات: شامبو قمل الرأس في الصيدلية، وأمشاط الشعر دقيقة الأسنان. وفي متجر الهدايا توجد كتب تعليمية رُصَّت في كومة عالية وبألوان مختلفة وأقلام ومساطر وأدوات رسم ميكانيكية. وفي الأدوات، تُركت عُلب طعام وحقائب كتف وعصي رمي في الأمام، حيثما يمكن للنساء رؤيتها.

نعود إلى البيت ونتناول حساء، نغمس فيه خبزنا ثم نكسره ونرتشف بعضه، وقد أصبح كل منا يعرف الآخر الآن. وبعد ذلك، أتبع كينسيلا إلى الخارج نحو سقيفة الدريس، حيث يجعلني أَعِده بألَّا أنظر وهو يجري اللحام. أتبعه اليوم حيثما يذهب، وأدرك ذلك، ولكني لا أستطيع التوقف.

انقضى موعد وصول البريد ولكنه لا يطلب مني إحضاره إلا بعد حلول المساء، وبعد حلب الأبقار، وتجريف غرفة الحلابة، وتنظيفها.

يقول، وهو يغسل حذاءه طويل الرقبة بالخرطوم: ـ أرى أن الوقت قد حان.

أتخذ وضعية الاستعداد، وأستخدم الدرجة الأمامية كنقطة انطلاق. ينظر كينسيلا إلى الساعة ويقطع الهواء بيده. أنطلق، عبر الفناء ثم المدق وأنعطف انعطافة حادة، وأفتح الصندوق وأتناول الخطابات ثم أعود مسرعة إلى الدرجة نفسها، مدركة أنني لم أكن بالسرعة التي كنت عليها أمس.

يقول كينسيلا:

ـ تسع عشرة ثانية أسرع من أول مرة تركضين فيها. هناك تحسن بمقدار ثانيتين مقارنة بيوم أمس، على الرغم من الأرض الطينية. أنتِ مثل الريح.

يأخذ الخطابات ويتفحصها، ولكنه اليوم، وبدلًا من إلقاء النكات عما بداخل كل منها، يتوقف.

ـ هل هذا من ماما؟

يقول:

ـ تعرفين، أظنه ربما يكون كذلك.

ـ هل عليَّ العودة إلى البيت؟

ـ حسنًا، إنه موجه إلى إدنا، فلماذا لا نسلمه إليها وندعها تقرأه.

نذهب إلى الردهة حيثما تجلس رافعة قدميها إلى أعلى، وتتصفح كتابًا لتصاميم تريكو. يوجد فحم مشتعل في الموقد، فيما ترتد أعمدة صغيرة من الدخان الأسود إلى الغرفة.

ـ هذه المدخنة، لم تنظفها قَطٌّ، يا جون. لا بد أن بها عُش غراب، أنا متأكدة.

يلقي كينسيلا الخطاب على حجرها، فوق ما تقرأ. تعتدل في جلستها ثم تفتح الخطاب وتقرأه. إنه ورقة صغيرة مكتوب عليها من الوجهين. تضعها ثم تلتقطها وتقرأها مرة أخرى.

تقول:

ـ حسنًا، أصبح لديكِ أخ جديد. تسعة أرطال وأوقيتان.

أقول:

ـ رائع.

يقول كينسيلا:

ـ لا تكوني هكذا.

أقول:

ـ ماذا؟

تقول:

ـ ويوم الاثنين هو أول أيام المدرسة. لقد طلبت والدتك منا أن نذهب بك في نهاية الأسبوع حتى تتمكن من كسوتك وما إلى ذلك.

ـ إذن عليَّ أن أعود؟

تقول:

ـ نعم، ولكن هل حقًّا لم تكوني تعرفين ذلك؟

أومئ وأنظر إلى الورقة التي بحجرها.

ـ لا يمكنك البقاء هنا إلى الأبد معنا نحن العجوزين الزائفين.

أقف هناك وأحدق إلى النار، محاولة ألَّا أبكي. مضى وقت طويل على آخر مرة فعلت ذلك، وبمقاومتي البكاء، أتذكر أنه أسوأ ما يمكنك فعله. لا أسمع شيئًا بقدر ما أشعر بكينسيلا يغادر الغرفة.

تقول المرأة:

ـ لا تضايقي نفسك. اقتربي.

تريني صفحات بها بلوزات مشغولة وتسألني ما الشكل الذي أحبه أكثر، ولكن جميع الأشكال تبدو لي متشابهة وهي معًا، فأكتفي بالإشارة إلى إحداها، زرقاء اللون، والتي يبدو أنها ربما تكون سهلة.

تقول:

ـ حسنًا، سوف تختارين أصعب الأشكال في الكتاب. أفضل البدء في ذلك هذا الأسبوع وإلا ستكونين قد كبرت عليها حينما أنتهي من حياكتها.

٧

والآن وقد أدركت أنه يجب عليَّ العودة إلى البيت، أكاد أرغب في الذهاب، كي أنتهي من ذلك. أستيقظ أبكر مما اعتدت، وأنظر نحو الحقول المبتلة، والأشجار التي تتساقط منها قطرات الندى، والتلال التي تبدو أكثر اخضرارًا مما كانت عليه حينما جئت. أتذكر هذا الوقت فيبدو لي أن زمنًا طويلًا قد مضى عليه، حينما كنت معتادة أن أبلل الفراش وأخشى كسر الأشياء. يدور كينسيلا طوال اليوم هنا وهناك يؤدي هذا العمل أو ذاك، ولكنه في واقع الأمر لا يُتم أي شيء. يقول إنه ليس لديه قرص لجلاخة الزاوية ولا قضبان لحام، ولا يمكنه أن يجد زردية التثبيت. يقول إنه أنجز عديدًا من الأعمال خلال المدة الطويلة التي تحسَّن فيها الطقس حتى لم يبقَ لديه سوى القليل ليُنجزه.

نحن بالخارج ننظر إلى العجول التي ترضع. وبماء دافئ، أعد كينسيلا بديل حليبها الذي تمصُّه من حلمات مطاطية طويلة حتى تجف الحلمات. يا له من نظام غريب، يعزل العجول عن الأبقار ويعطيها بديلًا للحليب، حتى يمكن لكينسيلا أن يحلب أمهاتها ويبيع الحليب، ولكنها تبدو راضية.

ـ هل يمكنك أن تعيدني هذا المساء؟

يقول كينسيلا:

ـ هذا المساء؟

أومئ.

يقول:

ـ يناسبني أي مساء. سوف آخذك وقتما تريدين، يا بيتال.

أنظر إلى اليوم. يبدو مثل أي يوم آخر، بسمائه المستوية الرمادية التي تتدلى فوق الفناء، والكلب المبلل الذي يحرس الباب الخارجي.

يقول:

ـ حسنًا، تناولت حليبًا ألذ في الصباح الباكر، حسنًا إذن.

ثم يمضي عبر الفناء ويتجاوزني وكأني قد تركته بالفعل.

* * *

تعطيني المرأة حقيبة جلدية بنية اللون.

ـ يمكنك الاحتفاظ بهذه الحقيبة القديمة. لم أستخدمها البتة.

نطوي الملابس ونضعها بداخلها، إلى جانب الكتب التي اشتريناها من «ويب» في جوري: «هايدي»، و«ما فعلته كاتي بعد ذلك»، و«ملكة الثلج».

في البداية، كنت أتلعثم عند قراءة بعض الكلمات الكبيرة ولكن كينسيلا كان يضع، بصبر، ظُفره تحت كل كلمة، حتى أخمنها، ثم بدأت أفعل ذلك بنفسي حتى لم أعد بحاجة إلى التخمين، وأُكمل القراءة. كان ذلك يشبه تعلم ركوب الدراجة، حينما كنت أشعر بنفسي تنطلق، وأشعر بحرية الذهاب إلى أماكن لم يكن بوسعي الذهاب إليها من قبل، وكان الأمر سهلًا.

تعطيني السيدة كينسيلا قطعة صابون أصفر وفوطة وجه وفرشاة شعر. وبينما نجمع كل هذه الأشياء معًا، أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام التي أمضيناها معًا، ومن أين اشتريناها، وما كان يُقال أحيانًا، وكيف كانت الشمس مشرقة معظم الوقت.

وعندئذ فقط تدخل سيارة إلى الفناء. إنه جار أذكره منذ ليلة لعب الورق.

يقول فزعًا:

ـ إدنا، هل جون هنا؟

تقول:

ـ إنه بالخارج في غرفة الحلابة. سوف يكون قد انتهى الآن.

يهرول عبر الفناء، ويبدو ثقيلًا في حذائه طويل الرقبة، وبعد دقيقة، يُخرج كينسيلا رأسه من الباب.

يقول:

ـ جو فورتشن بحاجة إلى المساعدة في سحب عِجل له. هل يمكنك إتمام الحلابة؟ لقد أخرجت القطيع.

تقول:

ـ سوف أفعل بكل تأكيد.

ـ سوف أعود في أقرب وقت ممكن.

ـ ألا أعرف أنك ستفعل.

ترتدي سترتها الواقية وتنزل إلى الفناء قاصدة غرفة الحلابة. أجلس قلقة وأتساءل: هل يجب عليَّ الخروج لمساعدتها؟ لكن ينتهي بي التفكير إلى أني سأكون عائقًا لها وحسب. ولذلك أجلس على الكرسي ذي الذراعين، وأنظر إلى حيث ينبعث ضوء باهت مرتعش عبر غرفة غسيل الأطباق، من دلو مصنوع من الزنك. يمكنني النزول إلى البئر وجلب الماء حتى تجد ماء البئر لشايها حينما تعود إلى البيت الليلة. قد يكون ذلك هو آخر عمل أؤديه.

أرتدي سترة الصبي، وأحمل الدلو، وأمشي عبر الحقول. أعرف الطريق عبر المدق وبعد الأبقار، والأسوار الكهربائية، وأستطيع الوصول إلى البئر بعينين مغمضتين. وحينما أجتاز العارضة الخشبية، لا يبدو أن الطريق هو نفسه ذلك الذي سلكناه في تلك الليلة الأولى هنا. يبدو الطريق الآن موحلًا وزلقًا في بعض الأماكن. أمشي بخطى بطيئة باتجاه البوابة الحديدية الصغيرة ثم أهبط الدرج. يبدو الماء أعلى كثيرًا هذه الأيام. كنت أقف على الدرجة الخامسة في الليلة الأولى هنا، ولكني الآن أقف على الأولى وأرى حافة الماء تصل إلى أعلى، حتى تكاد تغمر حافة الدرجة التي لا يفصلني عنها سوى درجة واحدة. أقف هناك أتنفس، وأصدر أصواتًا لبرهة حتى أسمع صداها، للمرة الأخيرة. وعندئذ أنحني بالدلو، وأتركه يطفو ثم يبتلع الماء ويغطس كما تفعل المرأة ولكني حينما أمد يدي الأخرى لأرفعه من الماء، يبدو لي أن يدًا أخرى تشبه يدي تخرج من الماء ثم تسحبني إليها.

٨

لم يحصل في تلك الليلة أو التالية لها، ولكن في الليلة الثالثة، الأحد مساءً، أن اصطُحبت إلى البيت. بعد أن عُدت من البئر، مبللة تمامًا، نظرت إليَّ المرأة نظرة واحدة وتسمرت مكانها قبل أن تحملني وتأخذني إلى الداخل وترتب لي فراشي مرة أخرى. في صباح اليوم التالي، لم أشعر بسخونة، ولكنها أبقتني في الطابق العلوي، وأحضرت لي مشروبات ساخنة بالليمون والقرنفل والعسل، وأسبرين.

سمعت كينسيلا يقول لها:

ـ إنها مجرد قشعريرة، هذا ما لديها.

ـ عندما أفكر فيما كان يمكن أن يحدث.

ـ لقد قلتِ ذلك مائة مرة، وأصبح الأمر مزعجًا.

ـ لكن...

ـ لم يحدث شيء، والفتاة بحال رائعة. وانتهى الأمر.

أرقد هناك مع قنينة الماء الساخن، فيما أستمع إلى المطر وأقرأ كتبي، وأتابع ما يحدث باهتمام شديد، وأتصور شيئًا مختلفًا يحدث في نهاية كل كتاب، في كل مرة. أغفو فتتراءى لي أحلام غريبة، أرى فيها العِجلة الضائعة وهي مذعورة على الشاطئ ليلًا، وأرى أبقارًا بنية عجافًا لا تدر حليبًا من حلماتها، وأرى والدتي تتسلق شجرة تفاح وتَعْلَق فوقها. ثم أستيقظ وأتناول الحساء وأي شيء آخر يُقدم لي.

في يوم الأحد، يُسمح لي بالنهوض من الفراش، ونحزم كل شيء مرة أخرى، كما كان من قبل. وبحلول المساء، نتناول العَشاء، ثم نغتسل ونرتدي ثيابنا الجيدة. ظهرت الشمس من وراء الغيوم، وبقيت مائلة بأشعة طويلة وباردة، والفناء جاف في بعض الأماكن. وبأسرع مما أود، نصبح جاهزين وبداخل السيارة، وننعطف نحو المدق، ونمضي عبر شارع جوري ثم نعود إلى الطرق الضيقة عبر كارنيو وشيليلاج.

أقول:

ـ هذا هو المكان الذي خسر فيه بابا العِجلة الحمراء في لعب الورق.

يقول كينسيلا:

ـ أحدث ذلك حقًّا؟

تقول المرأة:

ـ ألم يكن ذلك رهانًا نوعًا ما؟

يقول كينسيلا:

ـ كانت خسارة له نوعًا ما.

نواصل السير عبر باركبريدج، وفوق التل الذي توجد به المدرسة القديمة، ثم نهبط باتجاه طريق السيارات. نجد البوابات عبر المدق مغلقة فينزل كينسيلا من السيارة لفتحها. يجتازها ويغلق البوابات خلفه، ثم يواصل السير ببطء شديد في اتجاه المنزل. أشعر، الآن، أن المرأة تفكر فيما إذا كان ينبغي لها أن تقول شيئًا أم لا، لكنني لا أعرف حقًّا ما هو، ولا تعطيني أي دليل. تتوقف السيارة أمام المنزل، فتنبح الكلاب، وتخرج شقيقاتي مسرعات. أرى والدتي تنظر من النافذة، ومعها مَن هو الآن ثاني أصغر إخوتي بين ذراعيها.

وفي الداخل، يبدو المنزل رطبًا وباردًا. يمكن تتبع آثار أقدام متسخة على طول المشمع الأرضي.

تقف ماما هناك مع أخي الصغير، وتنظر إليَّ.

تقول:

ـ لقد كبرتِ.

أقول:

ـ نعم.

تقول:

ـ «نعم»، حقًّا؟

ثم ترفع حاجبيها.

تتمنى لعائلة كينسيلا أمسية طيبة، وتطلب منهما أن يجلسا، إن وجدا مكانًا للجلوس، ثم تملأ الغلاية من الدلو الموجود أسفل طاولة المطبخ. تُنزل الألعاب من على مقعد السيارة ونجلس. تُخرج الأكواب من الخزانة، ويقطّع رغيف خبز، وتُترك الزبدة والمربى.

تقول المرأة:

ـ أوه، لقد أحضرت لك مربى. لا تدعيني أنسى أن أعطيها لك يا ماري.

تقول أمي:

ـ صنعت هذه من الراوند الذي أرسلته. وهذا هو آخر ما بقي منها.

تقول المرأة:

ـ كان ينبغي لي أن أحضر المزيد. لم أتوقع ذلك.

يسأل كينسيلا:

ـ أين الوافد الجديد؟

ـ أوه، إنه هناك بالغرفة مستيقظ. سوف تسمعه عما قريب.

ـ هل ينام طوال الليل من أجلك؟

تقول ماما:

ـ يصحو وينام. وقد يصيح في أي ساعة.

تنظر إليَّ شقيقاتي كما لو أنني ابنة عم إنجليزية، ويأتين كي يلمسن ثوبي وعُرى حذائي. يبدُون مختلفات، أنحف مما كنَّ، ولا يجدن ما يقلنه. نجلس إلى المائدة ونتناول الخبز ونشرب الشاي. وحينما يُسمع صراخ آتٍ من الطابق العلوي، تعطي ماما أخي للسيدة كينسيلا وتصعد لإحضار الرضيع. يبدو الرضيع وردي اللون ويصرخ وقبضتاه مضمومتان. يبدو أكبر حجمًا وأقوى من الطفل السابق عليه.

يقول كينسيلا:

ـ أليس طفلًا جيدًا؟ باركه الله.

تقول السيدة كينسيلا وهي تمسك بالآخر: ـ أليس قرة عينك؟

تصب ماما مزيدًا من الشاي لهما بيد واحدة ثم تجلس وتُلقم ثديها للرضيع. يُخجلني فعلها ذلك في حضور كينسيلا. وبينما تلاحظ ماما خجلي، ترمقني بنظرة طويلة وفاحصة.

يقول كينسيلا:

ـ لا أرى له أثرًا.

تقول ماما:

ـ خرج باكرًا، ولا أدري إلى أين.

يدور عندئذ حديث مختصر، ينتقل من موضوع إلى آخر، ولبرهة لا يخلو من التخبط فيما بينهم. وفورًا بعد ذلك، يُسمع صوت سيارة بالخارج. لا يتلفظ أحد بشيء حتى يظهر أبي، ويلقي قبعته فوق التسريحة.

يقول:

ـ مساء الخير جميعًا.

يقول كينسيلا:

ـ دان.

يقول:

ـ آه ها هي الطفلة الضالة. عدت إلينا، أليس كذلك؟

أقول:

ـ عُدت.

ـ هل أتعبتكما؟

يقول كينسيلا:

ـ أتعبتنا؟ كانت نافعة كالذهب، هذه الفتاة بعينها.

يقول بابا وهو يجلس:

ـ هل ذلك صحيح؟ حسنًا، أليس ذلك مريحًا؟

تقول السيدة كينسيلا:

ـ عليك أن تجلس وتتناول عشاءك.

يقول بابا:

ـ تعشيت ببعض الشراب في باركبريدج.

تنقل ماما الرضيع إلى الثدي الآخر، وتغير الموضوع: ـ هل لديكما أي أخبار؟

يقول كينسيلا:

ـ كلَّا... كل شيء هادئ تمامًا عندنا.

أعطس عندئذ، وأضع يدي في جيبي كي أخرج منديلًا، وأنظف أنفي.

تسأل ماما:

ـ هل أصابتك نوبة برد؟

أقول بصوت مبحوح:

ـ كلَّا.

ـ لم تصبكِ؟

ـ لم يحدث شيء.

ـ ماذا تقصدين؟

أقول:

ـ لم تصِبني نوبة برد.

تقول وهي ترمقني بنظرة أخرى فاحصة: ـ أفهم ذلك.

يقول كينسيلا:

ـ لقد أمضت الطفلة اليومين الأخيرين في الفراش. ولم تُعرِّض نفسها لأي لفحة برد.

يقول بابا:

ـ نعم. لا تهتم لذلك. أنت نفسك تعرف.

تقول ماما بصوت حاد:

ـ دان.

تبدو السيدة كينسيلا متوترة، مثلما كانت في يوم الكشمش.

يقول كينسيلا:

ـ تعرفين، أعتقد أن علينا أن نغادر بعد قليل. أمامنا طريق طويل للعودة إلى البيت.

تقول ماما:

ـ آه، ولماذا هذا الاستعجال الشديد؟

ـ ليس هناك استعجال على الإطلاق، يا ماري، إنما هي العادة. هذه الأبقار لا تمنحك أي فرصة للراحة.

ينهض عندئذ ويأخذ أخي الصغير من زوجته ويُسلمه لأبي. يأخذ والدي الطفل ثم ينظر نحو المولود الذي يرضع. أعطس وأنظف أنفي مرة أخرى.

يقول بابا:

ـ هذه عدوى ملائمة عُدت بها إلى البيت.

تقول ماما:

ـ ليست شيئًا لم يصبها من قبل، أو لن يصيبها مرة أخرى. هل أنت متأكد أنها ليست عدوى منتشرة؟

يسأل كينسيلا:

ـ هل أنت جاهزة للعودة إلى البيت؟

تنهض السيدة كينسيلا عندئذ ويتبادلون كلمات الوداع فيما بينهم. أتبعهما حتى السيارة مع والدتي التي لا تزال تحمل الرضيع بين ذراعيها. يرفع كينسيلا وعاء المربى وكيس البطاطا الذي يزن خمسًا وخمسين أونصة.

يقول:

ـ إنها ناعمة مثل الدقيق. بطاطا الملكة، يا ماري.

نقف بعض الوقت، ثم تشكرهما والدتي قائلة إن استضافتهما لي كانت عملًا طيبًا.

يقول كينسيلا:

ـ لا داعي للشكر.

تقول المرأة:

ـ الفتاة كانت على الرحب وهي على الرحب مرة أخرى في أي وقت.

يقول كينسيلا:

ـ يجب أن تفخري بها يا ماري.

ويقول موجهًا كلامه إليَّ:

ـ لا ترفعي رأسك عن الكتب. أريد أن أرى نجمات ذهبية على كتب المدرسة، حينما أجيء إلى هنا في المرة المقبلة.

يعطيني عندئذ قبلة، فيما تحتضنني المرأة، ثم أشاهدهما يركبان السيارة وأشعر بالأبواب تُغلق وبصوت السيارة عندما يدور المحرك، وتبدأ السيارة في الابتعاد. يبدو كينسيلا أكثر رغبة في المغادرة مما كان في قدومه إلى هنا.

والآن، وبعد أن ذهبت السيارة تقول ماما: ـ ماذا جرى؟

أقول:

ـ لا شيء.

ـ أخبريني.

ـ لم يحدث شيء.

هذه هي والدتي التي أتحدث إليها، ولكنني تعلمت ما يكفي، وكبرت بما يكفي، لأن أعرف أن ما حدث ليس شيئًا يجب ذكره بأي حال. إنها فرصتي المثالية في ألَّا أقول شيئًا.

أسمع صوت مكابح السيارة وهي تتوقف على حصى المدق، والباب وهو يُفتح، وعندئذ أفعل ما أحسن فعله. هذا ليس شيئًا يجب أن أفكر به. أنطلق من فوري وأسرع عبر المدق. لا أشعر بأن قلبي في صدري بقدر ما هو في يديَّ، وأحمله معي وأنا مسرعة، كما لو أنني أصبحت الرسول الذي ينقل ما يدور بداخلي. تخطر ببالي أمور كثيرة: الصبي الذي يظهر على ورق الحائط، والكشمش، وتلك اللحظة التي سحبني فيها الدلو إلى الأسفل، والعِجلة الضائعة، والمرتبة المبتلة، والضوء الثالث. أفكر في صيفي، من الآن، من الآن غالبًا.

وبينما أنعطف، وأصل إلى النقطة التي لا أجرؤ فيها على النظر، أراه هناك، يعيد تثبيت المشبك على البوابة ويوصدها. عيناه تنظران إلى الأسفل، ويبدو أنه ينظر إلى يديه، إلى ما يفعله. قدماي تتخبطان عبر الحصى الخشن، وعبر شريط من العشب الذابل في منتصف المدق. لا يهمني الآن سوى شيء واحد فقط، وقدماي تحملاني إليه. وحالما يراني، يتوقف ويتسمر مكانه. لا أتردد، ولكن أستمر في الركض نحوه، وتُفتح البوابة لدى وصولي إليه، فأرتطم به وأجدني مرفوعة بين ذراعيه. يحتضنني بقوة مدة طويلة. أشعر بخفقان قلبي، وبأنفاسي تخرج، ثم يهدأ قلبي وتهدأ أنفاسي بصورة منفصلة. وفي لحظة ما، يبدو أنها جاءت بعد ذلك بكثير، تهب عاصفة مفاجئة عبر الأشجار وتسقط علينا قطرات مطر كبيرة وثقيلة. أغمض عينيَّ ولكني أشعر به، وبالدفء الذي

ينبعث من ثيابه الجميلة. وحينما أفتح عينيَّ أخيرًا وأنظر من فوق كتفه، أرى والدي، قادمًا بخطى قوية وثابتة، وعصا مشيه بيده. أتشبث كما لو أنني سأغرق إن أفلته، وأُنصت إلى المرأة التي يبدو، من حنجرتها، أنها تتناوب النحيب والبكاء، كما لو أنها لا تبكي الآن واحدًا، بل اثنين. لا أجرؤ على إبقاء عينيَّ مفتوحتين، ومع ذلك أبقيهما، وأحدق إلى المدق، خلف كتف كينسيلا، وأرى ما لا يستطيع أن يراه. إذا كان جزء مني يرغب من صميم قلبي أن ينزل ويخبر المرأة التي أحسنت رعايتي أنني لن أخبر أحدًا أبدًا، فإن شيئًا أعمق يبقيني بين ذراعي كينسيلا، متشبثة بهما.

ـ بابا.

أستمر في مناداته، وأستمر في تحذيره.

ـ بابا.

شكر وتقدير

تود المؤلفة أن تشكر ريتشارد فورد على لطفه الكبير، وكذلك ديكلان ميد مؤسس مجلة «The Stinging Fly»، وريدموند دوران صاحب بيت «ديفي برنز» على رعايتهما الجائزة.

المؤلفة

ولدت كلير كيجن في عام ١٩٦٨ في أيرلندا، وانتقلت إلى نيو أورلينز في السابعة عشرة من عمرها، ودرست الإنجليزية والعلوم السياسية في شيكاجو، ودرَّست الكتابة الإبداعية في ويلز.

أصدرت ثلاث مجموعات قصصية ونوفيلا «احتضان» ورواية. نُشرت قصصها القصيرة في كبرى المجلات مثل: النيويوركر، وجرانتا، وذا باريس رفيو.

حازت نوفيلا «احتضان» جائزة ديفي برنز التذكارية، ونالت كيجن جوائز أدبية أخرى عديدة، منها: جائزة وليام تريفور، وجائزة روني للأدب الأيرلندي، وجائزة أوليف كوك.

كلير كيجن من بين أدباء المعرض الدائم لمتحف الأدب في أيرلندا، الذي يحتفي بالمؤلفين الأيرلنديين الكبار من القرنين العشرين والحادي والعشرين.

نالت كلير كيجن شهرة عالمية في تدريس الكتابة الإبداعية، وهي تعيش حاليًّا في أيرلندا.

المترجم

أنور الشامي، مترجم مصري من مواليد عام ١٩٧٥، تخرج في كلية الألسن بجامعة عين شمس، مارس الصحافة لعدة سنوات وكتب في بعض الصحف والمجلات العربية، ترجم عن الإنجليزية العديد من الأعمال الأدبية والسير الذاتية، من بينها: رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل، وروايتا «ما بعد الظلام» و«رقص رقص رقص»، وثلاثية «1Q84» لهاروكي موراكامي، و«اقتصاد الفقراء» لأبهجيت بانرجي وإستر دوفلو، و«أنا ملالا» للناشطة الباكستانية ملالا يوسفزاي. صدرت له لدى دار الكرمة ترجمة «ظلام مرئي: مذكرات الجنون» لوليام ستايرون.

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.

٢. سالباتييرَّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.

٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.

٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.

١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.

١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.

١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.

١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.

١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٢٥ . مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.

٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.

٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.

٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.

٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.

٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٣٨ . اترك العالم خلفك - رمان عَلم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.